مناقب
القطب النفيس
السيد أحمد بن إدريس

تأليف

الإمام السيد محمد عثمان الميرغني الختم
رضي اللّٰه تعالى عنهما

مناقب

القطب الأوحد والفرد الأمجد

الكامل الرباني الغوث الصمداني

أكمل أهل الله ذي التقديس الشريف الحسني

السيد أحمد بن إدريس

تأليف

تلميذه الأستاذ الأكبر

مربي المريدين ومرشد السالكين

ختم أهل العرفان الميرغني المكي

السيد محمد عثمان الميرغني

قدّس الله سره آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

به الإعانة بدءًا وختمًا وصلَّى الله على سيدنا محمد ذاتًا ووصفًا واسما

الحمد لله الذي تجلَّى بذاته لذاته، فأظهر الحقيقة الأحمدية من أعظم تجلياته، وأبان منها بعد أن أشهدها تجليه بنفسه حقائق أسمائه وصفاته، ورداها برداء كبريائه، وحققها بمعاني أسمائه، وبطَّن وظهَّر بها في جميع حضراته، فأنشأ الحقيقة الكليَّة بالنظر العلي الأسمى، وجعلها مجلى إلهيًا أحديًا صمديًا جامعًا لأنوار حضائر الأسماء، وعيَّن فيها أشخاص صفاته الجلالية السلبية ونعوته الجمالية الكمالية الغيبية، فتبيّنت صفات المعاني وأسمائه المطوية في باطن الوحدانية، وتدونت السبع المثاني المرموز لها فى بواطن المدلولات القرآنية، ومن هنا انغرس الوجود وزال العدم، وفهمت أحكام الحدوث والقدم، وتفجَّرت عيون المعاني من بحرها الزاخر، وعرَّف معنى الباطن والظاهر والأول والآخر، وبرزت المحمدية بجميع بواطنها حافظة وعالمة، وخصصت بنور الذات، وأجلست على منصة الحضرات، وكانت بها عليها حاكمة، وانتشرت منها الأنوار والظلمات، وأوجدت جميع المكونات، وظهر منها الأمكنة والأزمنة والحدود والجهات.

أحمده سبحانه وتعالى بجميع المحامد العالية، على أن عرَّفنا الدُّرة الفريدة التي بأحكامها الكل قائمة ولها جالية، وأشكره شكر من كرع فى بحر اللطائف الذاتية، وشرب من حال رحيق سلسبيل العيون الصفاتية، واستهديته صراط الحياة النفسية القيومية، التي قامت بها جميع الحضرات القدسية. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، إلهًا تعالى أن تقع عليه العبارة، وتنزَّه في تعاليه أن توميء إليه الإشارة، وتعزز بالكبرياء والأزلية، وتفرد بالبقاء والمخالفة والأولية، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده

ورسوله وحبيبه وخليله إنسان عين الكمالات، المصونة في جميع الحضرات، القائم بأحكامه الذاتية، في حضائر الأسماء الصفاتية، المؤدي كل رتبة إلهية حقها من العبودية الخالصة، خزانة اللَّه التي خبأ بها شؤونه الغيبية، وأظهر عنها كل حقيقة قدسية، بنفسها شاخصة صلَّى اللَّه عليه بظاهر وباطن حقائق اسمه العظيم الأعظم، وسلَّم بغيب شهادة اسم ذاته التي هي بجميع أسمائه الظاهرة والباطنة، أجمع وأعلى وأعم صلاته وسلامه، اللذين تفضَّل بهما عليه في الأزل، ومدَّ حكمهما إلى الأبد، وتحنن وترحَّم وزاد كما أمر عباده من سائر أسمائه وصفاته، وإن من كل إلا يسبح بحمده من مخلوقاته، صلاة وسلامًا ينمو عددهما ويعظم مددهما إلى غير نهاية، كما كانتا منه تعالى بغير بداية، وأدخل فى ضمن ذلك آله الذين ورثوا كماله، وأدركوا جلاله، وحازوا ملكه وجماله، وأصحابه المهاجرين والأنصار، البائعين للَّه نفوسهم فى جهاد المنافقين والكفار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القرار.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

وبعد، فهذه مناقب القطب الأوحد والفرد الأمجد، الكامل الرباني والغوث الصمداني، واحد زمانه الذي ليس له فى عصره ثاني، العارف باللَّه النفيس سيدنا السيد أحمد بن إدريس، ألَّفها فيه وأنشاها في نشر معانيه ومثانيه، تلميذه الأكبر ختم أهل العرفان، الميرغني المكي سيدنا السيد محمد عثمان، وها نحن نذكر منها زبدًا حسانًا، ونضيف إليها ما سمعناه من حضرة ابنه بركة الوجود ومنجدل الجنود وقائد الوفود، سيدي السيد محمد الحسن الميرغني أبو جلابية، مظهر الحسن والإحسان، ونبدأ ما صحَّ لديه من كرامات شيخ والده وما برز منها للحس والعيان،

ونحلي بعقود جواهر مديحه جيد الدهر والزمان، رزقنا الله خالص مودتهم وصادق محبتهم، وكمال الأدب معهم والتوفيق على خدمتهم مدى الأزمان، آمين.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانك الْأَكْبَرْ

قال سيدي السيد محمد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مناقب أستاذه سيدي السيد أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو شيخنا صاحب الوقت وعارفه، وقطب العصر وصارفه، من وقفت همم العارفين دون مقامه، وترقت مقاماتهم بيقظته ومنامه، قطب حيطة الولاية الكبرى، وسر الله الأعظم فى أوليائه دنيا وأخرى، من عمَّت إمداداته جميع العارفين قديمًا وحديثًا، وطمَّ فيضه فصار غيثًا مغيثًا، باب الله الأكبر بين النبوة والولاية، وسر الله الأفخر الذي ليس وراءه للأولياء غاية، يشهد واردات المصطفى، يعرف ذلك من ورد بحرهم ومنه غرف، من لو أخذنا فى الثناء عليه مدة من الزمان، لم نحص شيئًا مما هنالك.

سيدنا ومولانا وولي نعمتنا، أكمل أهل الله ذي التقديس، الشريف عمدتنا وملاذنا أبو محمد السيد أحمد بن إدريس، وُلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمغرب الأقصى، في آخر القرن الثاني عشر ولا أحيط بفضله إحصاء، بقرية بنواحي فاس تسمى قارة -حرف بين القاف والكاف- ونعم القرية السارة. فنشأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من صغره مجبولًا على حب الخلوة والعبادة، لما هيّأه الله للسيادة، فكانت أوقاته مصروفة فيما يرضي مولاه، وأحواله موجهة لما ينتج له علاه، فاشتغل أولًا بالعلم الظاهر، وأخذ عن جملة من الأكابر، ونال منهم الحظ الوافر، حتى لم نر أحدًا متمكنًا فيه مثله، ولم نسمع به ولم نر من حام بحومته فى ذلك ولا بقربه، فأما التفسير والأحاديث فلو رأيته لقلت لم يناظره فيه أحد من العلماء والأولياء لا في القديم

ولا في الحديث، وأما النحو واللغة والتصريف، فأكابر أهل فنها بجانبه لهم تحريف، وقس على ذلك باقي العلوم المعلومة، والشواهد التي بين الأدباء مرسومة، وأما الفقه فقد حقَّق وأتقن جملة المذاهب الأربعة وغيرها من السبعين المندرسة بفضل الواهب، فلو رأيت معه أكبر فقيه مالكي أو حنفي أو شافعي أو حنبلي، لقلت هذا لايفهم مذهبه بالنسبة إليه بأمر جلي.

فلما بلغ فى ذلك أقصى الغاية بالفضل والمنة، أشغله الله بالكتاب والسُّنَّة، فكان على قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التحقيق، خارجًا عن مذاهب الفقهاء، موف بالأمر والنهي على كمال التوفيق، ثم لما صارت له اليد الطولى في العلوم الظاهرة، اختاره الله تعالى لنيل أعلى درجات الولاية الفاخرة، فجمعه اللَّه تعالى بجملة من العارفين، منهم الشيخ محمد المجيدري، فأخذ عنه بعض العلوم والأذكار والحزب السيفي، وهو أخذه عن قطب الجان سيدي محمد الفقوي، وهو تلميذ سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كبير الشأن، وأخبرني الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذا القطب أدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع صغره، وأما أخذه فجله عن سيدنا عليّ، كما قاده شيخنا الأبر وهذا القطب هو الذي تخلف بعد شمهروش المقضي على الجان من حضرة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يثني على الشيخ المجيدري فى العلوم الظاهرة، ويقول أنه يعرف غلطات القاموس، فيا لها من معرفة زاهرة.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

قال سيدي السيد محمد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه القصيدة العجيبة، يمدح بها شيخه:

يـا مليكًـا بجـلال قـد قهـر وأميـرًا بجمـال قـد بهـر

وعظيمًـا بكمـال قـد سـما علو ذاك الفخر عن كل الخِير

وفخيمًـا بسـناء كامـل مـن سناه كل نـور قد ظهـر

وعليًّـا فـوق هامـات العـلا صـارت الأقـدام منـه لا نكـر

وجلـيلاً مـن سـطا هيبتـه فـاق مـن رام جـدالاً ونظـر

وجمـيلاً مـن بهـا طلعتـه غابت الأفكار إذ جاءت فكـر

وكريمًـا مـن عطايـاه تـرى تحف النور توافي من حضـر

ورحيمًـا يـرحم المبغض لـو شـدّ فيـه لـم يعاقبـه الـدهر

وعليمًـا مـن لـدن ربـي قـد نـال علمًـا علـم ذوق ونظـر

وحكيمًـا قـد أتتـه حكـم لـم ينلهـا أحـد ممـن غبـر

وخبيـرًا حـاز أسـرارًا علـت علمها عمن سـواه كـالبحر

وفهيمًـا لمعـان أودعـت فـي كتـاب وحـديث لا يـذر

وشـريفًا قـدره المجـد فمـن نـال مجـدًا مـن عـلاه انجبـر

ولطيفًـا مـن أتـى مجلسـه يسلب العقل بلطف مـن ظهـر

وعفيفًـا عـن سـوى نـور العـلا لـيس إلا فـي عـلاه منحصـر

ونبيهًـا نـور فهـم مـن لـه يحظى في أمر بلى يحلو الفكـر

وأديبًـا أدبنـه المصـطفى فلهـذا صـار تأديبًـا ظهـر

ووجيهًـا كـل وجـه فـي العـلا هـو وجـه الوجـه إذ بـان النظـر

ونبـيلاً أبحـر السـر أتـت مـن حـلاه فحـلاه كـالمطر

ومفيضًـا فيضـه السـامي أتـى بحبـور وسـرور كزهـر

وعزيـزًا عـزه صـار إلـى من تبعه فهـو في العليـا استقر

ومليكًا من أتى في ملكه نال أعلى ما ينالوه الكبر
وأميرًا إن نهى أهل العلا تبعوه لا خلافًا أو أمر
مفرد الدهر بدهر مفرد لم يساويه ولو غوث ظهر
عارف الوقت ولا يدري به غيره ممن سيأتي أو غبر
نخبة العصر وما في عصرنا مثل هذا الفرد فرد في العصر
سيد الأقطاب بل قطبهم فعليهم حكمه دومًا ممر
عمدة الأغواث بل غوثهم إن أرادوا للكمالات فخر
صدر أعيان كبار الأولياء برزخ السر الذي فيه سبر
أنت قطب لمقامات سمت لم تدر إلا عليكم ما الدهر
أنت نور ساطع في جذوه منه أعطى من ببدو وحضر
أنت ذو التحقيق في العلم السني حزت أسرار كتاب وسور
غصت فيها بعطاء من ولي ففهمت القصد منها يا بحر
أنت غوث للورى إن ضجروا من مهمات زمان قد ذعر
أنت غيث لجميع الأتقيا وغياث الأوليا نور البصر
أنت بحر موجه يا سندي يقذف الدر من الوهب الأغر
أنت بر أثمرت أشجاره في رياض مونقات بالزهر
أنت سر غامض لم يدره غير هذا وكذا السر أسر
أنت فتح الله والفتح العلي اللدني من إلهي لك در
أنت نصر الحق أبواب الهدى بك تبدو وبك الله نصر
أنت في الأكوان فرد جامع لمعاني الفرد بل أنت الوطر
أنت كنز الله بالله عمر وبه كنت جديرًا معتمر

أنــت حبــي رب بــر وعطــا   مــنن عمت مـن الشيخ البحـر
أنــت فــي الــدهر مــلاذ دائمًــا   ليس يـا الحب لنـا عنك مفـر
أنت روح الـروح مني سندي   وكــذا قلبـي وسـمعي والبصـر
وفــؤادي آي ولبــي يــا لــذا   غبـت عـن زيـد وبكـر وعمـر
بــل تبــدّى ومــلأ الكــون ســنا   عرشـه والحجـب للعقـل بهـر
لكــن المعقــول بالعقــل الــردي   لـم يـر هـذا وعميـان البصـر
لــم يــروا نــور ذكــاء والــذكا   لـم يفـد قومًـا تولـوا النكـر
حفــروا بئــرًا فطــاحوا وســطها   حـين كـل مـنهم يـا ذا حفـر
بعقــول كســدت بــل خســرت   يا لعقـل قـد رمـاهم فـي الحفر
لم يروا كم مـن كرامـات بـدت   فاقـت الشـمس ظهـورًا والقمـر
كــم ضــمير أضــمروه الفطنــا   فيـه أخبـرت مـن غيـر نظـر
ولهــم يكفــي لــو أنهــم مضــوا   اسـتقامات علـى طـول الـدهر
لكــن الشــيطان ســوّى رانــه   فـوق نـور العقـل مـنهم فستر
ورمــاهم فــي المهــاوي فهــووا   لقبـيح وعلـيهم قـد حجـر
ضــلهم عــن ســبل الحــق فمــا   أقـبح العقـل إذا الشيطان جـر
جــرهم نحــو رضــاه فجــروا   كـل حـين يتبعوا مـن قـد فجـر
نــور أســراركم يحجــبهم   عنكم والنـور يهـدي مـن بصـر
لــيس موتانــا وصــم يســمعوا   لنــداكم ودعــاء معتبــر
لا ولا العمــى هــداكم يهــدهم   مـن ضـلال فـي قلـوب اسـتقر
لــيس يهــديها وبغــض الحــب قــد   ملئـت فالبعـد فـيهم مسـتطر
إنمــا يســمعوا قــوم آمنــوا   لبـداكم وكـذا القلـب عمـر

حبكم فالنور منكم يجتلى وهداكم يكسى الفهم بصر
ونداكم يا له منه ندا يحتويه كل قوم قد عبر
كم بكم نال الترقي ظاهر وبكم وسط الكمالات ظهر
كم بكم حاز التجلي شاكر وبكم نال المعالي وشكر
كم بكم حل المجالي ماهر وعلى رأس المقامات مهر
كم بكم حاز كمالاً ناظر وإلى سطح الولايات نظر
كم بكم فاق نظير كامل وإلى الباب ترقى وافتخر
قال إني عبد عبد قد عطي لكلا الوجهين حيث السر قر
أنا عبد لإمام قد وفى لمقامات بحق جا الخبر
مثله لم يوفي عبد قد مضى بل ولا في آلات يا أهل النظر
كل فخر قد حواه خادم لك في الكونين يضحى مشتهر
كيف لا والكل آت منكم وبكم قد راق ما نال وقر
كيف لا والحب طه جدكم خصكم منه بأنواع الفخر
كيف لا والمصطفى أتحفكم بكرامات بها القلب سر
كيف لا والمجتبى أسعدكم بفناء منه في كل البكر
كيف لا والمنتقى أيدكم بتجل منه حاوي للوطر
كيف لا والمرتضى دللكم كلما ترضوه يرضاه الأبر
لم تزالوا في هواه دائمًا وهواه من هواكم مبتدر
لم يزل يعلو بكم أعلا العلا ويريكم من بديع قد أسر
لم يزل يجلو لكم وجهًا له كل وجه وجهه وجه أقر
لم يكن بينكم فضل بلى دائمًا وصل وصباحًا وسحر

في الدنا في الحشر في الجنة في		كثب المسك وزدنا في الخبر
في مقام الواو يا المحبوب قل		ما تشا ما رمته يجري القدر
وامض بالتصريف فيما شئته		جدك المختار يقضي للوطر
ولذا المعنى إذا لم تك نحتج		لأرباب الولايات الكبر
لو أبو أمرك يمضي بل أرى		فيهم يجري لو بدوا للنفر
عجبًا من معشر قد زعموا		احتياجًا منك في العصر الأغر
لأهيل العصر لا تحتاج قد		صرت بالمختار سلطانًا أبر
جمع الأصل مع الأصل فما		يجد الفرع سوى منه نظر
فيه خذ بيدي خذ بيدي		يا شهاب الدين يا ذا المنتظر
أحمد الناس به خذ بيدي		بيد العُبيْد عُبيْد قد عثر
يا ابن إدريس تولى هالكًا		في هواه بل هواه قد غمر
بل دوامًا عاثرًا في الحال		والماضي والآتي على مر الدهر
غارق في بحر عصيان وما		أرني إلا به دومًا مقر
فإلام الحال هذا سندي		وإلام النقص مني يا البحر
ضقت من كثر المعاصي فعسى		نفحة منكم قضاء للوطر
فارحموا من هم خيار الرحما		واجبروا كسر كسير انكسر
واقلبوا تربي تبرًا طهّروني		من الزلات وأولوني النظر
واجعلوني إكسير إصلاح فما		غيركم أهل لهذا المنتظر
وإذا يوم الميعاد المرتجى		جئت ضيّفوني إليكم لا نكر
ليس عندي أدب أرجو به		لخلاصي معكم يوم الضجر
ما لكم كفو وربي غيركم		فاعذروني إن نقصي قد ظهر

بل كمـالي عيـن نقصـي سـادتي	وإلـى الـنقص ارتكـازي مبتـدر
فاقبلوني واجعلوني أقرب الناس	مــنكم باعتبـــار ونظــر
واقبلـوا مــن لـمَّ فـي شـرذمتي	وطريقــي مــن بـبـدو وحضـر
واقبلـوا الإخـوان والآبـاء مـع	معشــر الأولاد والأهــل زمــر
وأضــيفوا الكـل للنــور الــذي	منـه أنـوار العـلا صـارت تـدر
واجعلونـــا أمـــة محميـــة	وأخيرونـا مــن الخبـث سـقر
وبظــلٍّ مــن لــواكم أدخلونــا	وفــي الجنــات ادنونــا حبــر
ثــم أولونـــا لقــرب دائــم	فــي كثيــب ومقـــام مفتخــر
قـل أيـا عثمـان قـد هبنـاك مـا	قــد وهبنـــا بمقـــال مختصــر
ولابنــك محمـــدنا وصـــحب	مثـل هــذا والعطـا قـد جـاء قـر
وإلــيكم بنـت فكـري سـيدي	غـــادة خـــود خـــرود لا فخـــر
ألبســت حليًّــا حليًّــا وحلــى	ثم زُفـت نحـوكم تمشـي الفخـر
مــا لهــا كفـو سـواكم إنهــا	بكـر أبكـار وتسـتعطى المهـر
مهرهــا مــنكم عطـا مـا سـألت	وعطــاكم لــيس يشـبهه البحـر
أغرفوا من بحـر طـه المصـطفى	وأفيضــوا نحونــا فيضًــا غمــر
صـلى مولانــا عليــه المجتبـى	صـــلوات بســـلام معتبـــر
عــدد الأفــلاك والأمــلاك مــا	دارت الأدوار فــي كــل دهــر
وعلــى روح الحبيــب المجتبــى	أمنـــا الزهـــرا ســلام مبتكـــر
وعلـــى الآل جميعًـــا وعلـــى	حبـه الصـديق والفخـم عمـر
وعلـــى ابــن عمــه خيــر فتــى	وعلــى عثمـــان صـهر مشــتهر
وعلى جمع صـحاب المصـطفى	ما سـرى الإمــداد مـنكم وغمـر

ثم لما صحبه برهة من الزمان دلَّه على شيخ إرشاده درة صدفة الأكوان، من مكث كما أخبرني الأستاذ في القطبية مما ينوف عن الثلاثين سنة، ونال من درجاتها أعلاها، وشاهدناه فى السطح فيا لها من منقبة. قال الأستاذ رضي الله عنا بسببه: لما اجتمعت به قبَّلني وأقبل عليَّ وصار سلوكي على يده، فمنه مددي، فلازمت بابه وخدمته أربعة سنوات، وليس قصدي بذلك إلا رضاء رب السماوات، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحبة على غاية الصدق فى الخدمة والقيام بالأمور مع لزومه الحشمة، لم تطرقه غفلة لحظة فى تلك الصحبة، ولم تخلله رائحة فترة فيما ناله من المحبة.

أخبرنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمور تقتضي أنه في حياة أستاذه فتح له فتحًا جليلًا، فمن ذلك قال لي: كنت مرة فى جنازة بعض الإخوان، من تلامذة شيخنا كامل الإحسان، فرأيت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمة حاضرًا ومعه بعض أهل الشأن الفاخر، فقلت: منامًا أم عيانًا؟، فقال: عيانًا. فيكفيك هذا الشان. ولم يزل بحياة شيخه يرتقي المقامات العالية، ويجتني من معارفها قطوفًا دانية، وينال شيئًا تضيق عن ذكره الطروس، حتى أتت وفاة شيخه الكامل الناموس، فكان وارث حاله وخليفته، وجامع ما تفرَّق من أتباعه وعلومه وحقيقته، فصار بعد انتقال الشيخ هو رأسهم على الإطلاق، بل هو رئيس كل الأولياء باتفاق، فتصدر بإشارته للمريدين وصحبة أصحاب شيخنا سيدي عبد الوهاب التازي، وصاروا له منقادين ومذعونين، فظهر بالشريعة والحقيقة، وبنا فى ديار المغرب معالم الطريقة واحيًا السنة المحمدية، مثل ما كان النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، رافضًا اضمحلال هذا المنوال وأربابه، فلما ظهر صار يقبض ويرفع ويبسمل جهرًا، ويؤمن بخلاف ما عاش عليه

المالكية دهرًا، ويعمل بالسُّنة سواء أن وافقت مذاهبهم أو غيرها، ولا يراعي فى ذلك خاطرًا ولا صاحبًا، وكل من تطاول لمنازعته من العلماء والسلاطين قصمه بصولته الإلهية، وجعل رأسه فى الطين، فخاف منه الفقراء والأمـراء، وأحبّـه أهـل الحـق القائمين به بلا امتراء، وكان له القدم الراسخ فى علوم القوم، الذي لم تسمع الأذن مثله، ويطرب القلوب نسجه وشكله، فاق على الشيخ ابـن العربـي فـي الـدقائق والعلوم، وفاق على الحكيم الترمذي فيما أعطاه من سر القوم المرسوم، فلو سمعت أذناك حميد كلامه فى الحقائق المرونقة، أو طرق فؤادك جلال كلامه فى الحضرة المدققة، لقلت: أقسم باللَّه وبشأن الرسول، ما أعطي أحد مـن الأولـيـاء مثـل هـذا المشهد الذي هو فيه مجعول، فنسأل اللَّه الذي وهبه ومنحه من خزائن فضله وبره أعطاه ذلك ونصبه، أن ينيلنا قطرة من شرابه الذي لم ينله أكابر العارفين، وأن يجعلنا من خواص خواصه، بل من خواصه المقربين.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانك الْأَكْبَرْ

قال فيه سيدي السيد محمد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه القصيدة أيضًا:

سلام من الـرحمن أزكـى مـن العطـر	شذاه وأحلى من نفيس الحلي المطر
علـى أس أجـدار الولايـة سـيدي	ملاذي إذا ما ضقت من نكبة الدهر
علـى معـدن الأنـوار بحـر فيوضـنـا	على مركز الأسرار حبي علي القدر
على قطـب أقطـاب العناية مـن لـه	مـن اللَّه تقريـب يجـل عـن الحصـر
علـى جبـل الطـور الإلهـي مـن لـه	تجلـى إلهـي بالكمـال ولا نـدري
على فخر ديوان الجناب المحمدي	من الأولياء الأغواث حاز لذا الفخـر
علـى عـين خلفـاء الإلـه وحبـه	ورمز حجاب قام فـي عـالي الصـدر
علـى سـيد يقفـو لآثـار جـده	بمـا لاح منـه تـدري قصـة ذي أمـر

على من لـه يمـين اليمـين ومـن لـه يمـين إذا مـا قبلـت تمحـو للـوزر
على ذاخر العلـم الجليـل مـن العلـي تـرى نثـره يبديـه أجلـى مـن الـدر
علـى مـن تملـت روحـه بمشـاهد فصـار بهـا ملتـذ منـه لـه تـدري
علـى مـن سـرى إمـداده فـى عـوالم لهـا يعلـن لا غيـره مـن ولـي مطـر
على من عـلا حتـى لسـاني كَـلَّ أن يعبـر عنـه ليتنـي لـم أقـل شـعري
ولـم أبـد نعتًـا لـو أقضـي أيـامي لعلـي أستقصـيه لـم أدن للعشـر
أيا الغوث للأقطاب والغوث ذا الـذي له يرجو ذا الأخيار عصـرًا ورا عصـر
أيـا كعبـة الأنـوار يـا حجـر سـرها وميزابهـا الممـدد دومًـا لهـا يجـري
أيـا حجـر التقبيـل للفـوز والهنـا ويـا مسـتجار اللائـذ الـرائم السـر
ويا زمزم الإشـفا ويـا حـرم مـن جـا لسوحه لـم يشـق ولـم يبـؤا بالخسـر
أقامـك مولانـا لـذا الـدين ناصـرًا وحـلَّاك بـالتقوى وخـلَّاك مـن كبـر
وجـلَّاك بالتقـديس مـلَّاك بالرضـا وحـلَّاك بـالتوفيق يـا عـالي القـدر
حبـاك بـأخلاق كمثـل نسـيمنا فلم تك تغضب لم تكن مبدئي الفخر
فيـا عمـدتي يـا مركـزي يـا مقـدمي ويـا ملجـاي والله والله والطهـر
صـحبتك لا أبغـي بـذلك دنيـة ولا جاه لا نهيـا علـى النـاس لا أمـر
ولكننـي أبغـي بـذلك وجـه مـن هـو الله مـولى العـالمين ولـي السـر
نعم ومـرادي حـين يحضـرني مـوتي تدافع عني السـوء تخـتم لـي عمـري
بحسن ختام يحضـر المجتبـى أيضًـا تُـدافعًا عنـي لوحشـة ذا القبـر
وفي الحشـر تـدنيني لنحـو لـوائكم تقول أيا ابن إدريس للمصطفى زخري
محمـد عثمـان المسـيىء الـذي لـه من الذنب أوزار تفـوق عـن الحصـر
لـه لـمَّ أيـا ربـي تقـولن أيـا جـدي عبيدك هذا الميرغني صاحب الـوزر

له أعف يا غفار وادنيه عندنا واستره قربه إلينا أيا بر
بموطننا هذا وفى جنة الرضا كذا فى كثيب والوسيلة ذا فخر
فمهما أتاني ما طلبت فيا فوزي وإلا فويلي من ذنوب أثقلت ظهري
ولمَّ لأبنائي وصحبي كلهم ومن يجببني فيكم أحمد الفخر
وخص محمد مع محمد ابنكم بقرب يقر العين فيما له أطري
سألتك بالجد المعظم قدره وبالشيخ عبد الوهاب السيد الذخر
تجبني لأمري عمَّك الله بالرضا وصلى على محبوبه السند البدر
وآله والأصحاب ما قال مشتاق سلام من الرحمن أزكى من العطر

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

ثم كتب بخطه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما نصه:

ولما انتهت إليه الطريقة بالديار الغربية، وانتسب إليها من أراد اللَّه انتاجه ودخوله للحضرة الفردية، قال لي: ولما انتقل سيدي السيد عبد الوهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أردت أن أعرف أكمل من بفاس من الأولياء الأقطاب، فرأيت أكبر هذا الشأن سيدي أبا القاسم الوزير، وكان من الأفراد عارف جليل القدر كبير، فأحببت صحبته للتكميل على يده، وقلت: هذا شأن العارفين، فتوجهت إليه، قال: وكان سيدي أبا القاسم الوزير من الملامتية المستترين، متخذًا له دكانًا يتوارى به من معرفة الناس، لفساد الوقت والمحبين، فاطلعت عليه وصحبته أربع سنوات، وكنت له على غاية المحبة بإثبات. وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونفعنا به: وكنت مدة صحبتي له أتكرر في البيت عليه، فأجئ، فإن وجدته خارجًا جلست بين يديه، وإن كان داخل الدار أجلس ولا أرسل له أحدًا من الإخوان ولا أنادي، بل أستانس بمن معي من الإخوان، فإن خرج إلينا رآنا وباسطنا وأفادنا، وإن لم يخرج إلينا ودخل أحد أخبره

عنا كذلك أتانا ونعّمنا، أو جاء أحد خارجًا من داره وأخبره فيجيء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومما منحه الله يعطينا، وإن لم يأت إلينا نرجع بعد انقضاء وقت عادة جلوسنا معه، وهذا في كل يوم من الأربع سنوات صنعنا معه، فانظروا معشر الإخوان ما أشـهد هذا الأدب، وما أجمل هذه العزيمة، وما أعرف بقدر الأستاذين وحفظهما لجميـل هذه النعمة. وكان يحكي لنا حكاية غريبة تؤذن بعظمة الأستاذ في زمن صـحبته العجيبة. وهنا انتهى خط يده وسطوره وقد مزجنـاه بكلامنـا ليستضـيء ظلامنـا بنوره.

وهو أن سيدي أبا القاسم قال: كان لي صاحب من الأولياء والعارفين، فجاء لي وآنسني بكلمات، وأخبرني بعلوم وأسرار لطيفة غريبة شريفة، وقال لي: إنه سيجيء لفاس رجل اسمه أحمد بن إدريس ينزل فى المدرسة الفلانية، إذا جـاءك فاعلمـه بهذا السر، ولا تعلم به أحدًا غيره. وكانت الحكاية قبل الاجتماع بسيدي أحمد بن إدريس بزمن طويل، فلما أراد سيدي أبو القاسم أن يعلمني بذلك، قلت له: أتأذن لي أن أكلمك قبل أن تكلمني؟، فقال لي: نعم، قال سيدي أحمد بن إدريس: فأعلمتـه بتلك العلوم التي أسرها إليه، وبسطت له القول فى ذلك، قال: فتعجب سيدي أبـو القاسم مني، وقال: ما ذكرها لأحد قط. انظر أيها السامع إلى جلالة شيخنا وكمال معرفته ورسوخه فى المعارف الإلهية، كيف وصل إلى علوم أسرها أكابر الأولياء إلى شيخه، وهو يعلمه الله بها قبل إخبارهم له بها.

ولما توجه إلى الحرمين بطريق مصر نزل بالإسكندرية، فأخذ أرباب الدولـة بتفتيش حوائجه، وكان ملك مصر إذ ذاك عند الغز، فنهـى المكـاس عـن تفتـيش حوائجه، وقال: ليس في الصندوق إلا الكتاب، فأبى المكاس أن يمتنع عن تفتيشها، فقيل للأستاذ: هذا من عشائر الغز، فقال: والله ما يبقـوا فيهـا، فكـان سـبب زوال

ملكهم، وانتقل الملك إلى الفرانسيس ومنهم إلى الأتراك إلى وقتنا هذا. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقال لي بعض أكابر الأولياء أهل التصريف: أنه لم يحدث بمصر شيء إلا وعلمنا بها إلا واقعة الفرانسيس، لم نعلم بها إلا وقد حلّت بالبلد، فما علمنا السبب في عدم علمنا من اللَّه بها، قال: فقلت له: أنه أمر محتوم والولي الذي وقع بسببه أمره عند اللَّه ماضٍ غير مردود، وتصريفه نافذ ممدود، وعلم اللَّه أنه لو أعلم الأولياء بذلك لكانوا يستشفعون، والشفاعة لا تقبل، لأنه أمر نافذ ويكون بعض تكدير خواطرهم، فلأجل ذلك أخفى اللَّه عنهم هذا الأمر، ودخل عليهم رجل من أهل الروائح، الذين يعرفون الأولياء بالشم ومعه جماعة، فصار ينشق بأنفه ويخور، ويقول: هنا رجل، ويلتفت ثم دنا منه وسلَّم عليه وتعرَّف به.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانك الْأَكْبَرْ

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلما وصلت مكة أنا ومن معي من أصحابي، قلت لهم: لا تشتغلوا مع الناس بالكلام إلا بقدر الحاجة، وألزموا ألسنتكم الذكر بالاسم المفرد، فكنا إذا جاءنا أحد نرد عليه السلام، فإذا قال لنا مثلاً: من أي بلد جئتم؟، نقول: اللَّه. -أي ليس لنا كلام سوى الذكر- إلى يتعب السائل ويقوم. قال: وأخذنا على ذلك مدة طويلة، ونحن أوقاتنا تنقضي بذكر اللَّه والطواف والصلاة والعبادة. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكنا على قدم التجريد ليس بإيدينا شيء من الدنيا، وكانت تمر علينا الأيام العديدة ولا يدخل أجوافنا شيء غير ماء زمزم، ومع ذلك نحن فب غاية القوة الشديدة على العبادة. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكنت أطوف في اليوم والليلة أشواطًا كثيرة، ليست فيَّ الطاقة البشرية، وكنت أطوف نصف النهار في شدة الحر، حتى كنت أخرج ثوبي فأغمسه في الماء ثم ألبسه، فأصابني بسبب ذلك بعد سنوات داء الفالج وشفاني اللَّه تعالى منه.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نازلًا بمدرسة الباسطية، فقدم من جهة الروم بعض أرباب الدولة، وله تعلق ببعض رؤساء مكة، فأبى النزول إلا في مدرسة الأستاذ. فقال الأستاذ لجماعة الشريف غالب: انظروا له محلاً غير هذا، فأبى الرجل إلا ذاك المكان، فلما خرج الأستاذ لم تمض على الرجل أيام إلا وتوفي هو وأكابر دولته وخدمته، وتشتت جموعه واضمحلت رئاسته، فمن ذلك الوقت صار للشريف غالب وأرباب دولته لهم المحبة في الأستاذ والتعلق به.

ولما قدم ملك الوهابية أبو نقطة ومعه قبائل كثيرة، لقتال الشريف غالب وإخراجه من مكة، سمع الشريف غالب بذلك، فجمع جنوده وعساكره وآلات حربه ليدفعهم من الحرم، فأتى الى الأستاذ مختفيًا ومعه بعض وزرائه، فقال: سيدي إني أريد الخروج لقتال هذه الفئة الباغية، ودفعهم عن بلد اللَّه الحرام، وطرد هذا الخبيث، فادعو اللَّه لي، وأذن لي بالخروج، قال له: أما الخروج فلا أرى لك في الخير، ونحن خاطرنا معك، فأقم أنت في مكة، فإن جاء إليك فيسنصرك اللَّه عليه، وأما إن خرجتم إلى أبي نقطة، فسيجعل اللَّه فيكم نقطة ولا تنصرون، فخرج الشريف غالب جانحًا إلى ما قاله الأستاذ، فلم يتركه وزراؤه حتى وافقهم على الخروج، فخرج هو وجنوده ووزراؤه على أكمل هيئة وأشد قوة، فمكر به بعض عساكره عند ملاقاة العدو، فلما أحس بهم لوى عنان فرسه، وأحاط به أبناء عمه فحموه، حتى رجع إلى مكة، ووقع القتل في الماكرين، وأعاد كيدهم في نحرهم، فضاع أكثر من نصفهم، وندم الشريف على ما جرى له من مخالفة الأستاذ.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانِكَ الْأَكْبَرْ

ولما جاء كبير الوهابية سعود قادمًا إلى مكة، ومعه نحو ألف من الجنـود، أذن الشريف غالب لأهل مكة في مصالحته، لما علم أنه لا طاقة له بمدافعته، فخـرج والدي السيد محمد أبو بكر ومعه الشيخ طاهر سنبل رئيس العلماء إذ ذاك، ودخلا على سعود وطلباه الصلح والأمان، فأجابهم إلى ذلك، غير أنه استثنى ثلاثـة رجـال كانوا لبيوت الوهابية، قال: إن وجدتهم متعلقين بأستار الكعبـة أقـتلهم، فقـال لـه الوالد: إذن لنا نحذرهم، فقال له سعود: اخرجوهم، فلما خرج الوالد وحذّرهم، خرج اثنان وبقي واحد له تعلق بالأستاذ، بعد أن أعلم الأستاذ بما قاله سعود، واستشاره على الخروج، فقال له: أما إن كان للخوف منه فلا تسافر، وإن كان لك غرض آخر فسافر، فجلس الرجل فوبّخوه أهل البلد بأجمعهم، وقالوا له: ألم تعلم أن هذا الرجل قتل من هو أعظم منك، فإن حضر سيقتلك أشر قتلة، فتخوف الرجـل ورجـع إلـى الأستاذ، فقال له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تخش منه أبدًا ولا تخـف، فأقـام حتـى دخـل سعود بجيوشه إلى مكة، وسأل عن الثلاثة رجال، فأخبر أن اثنين سافرا وبقي واحد عبد المجيد، فدخل عليه وأرباب دولته حاضرون، وأمراؤه وملوكه وإخوانه بجانبه وحوله جالسون، فجاءهم الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كالأسد الضاري، متقلدًا بالبطش الإلهي، متوجًا بالهيبة الحقيقية، وقال: السلام عليكم ورحمة اللَّه تعالى وبركاتـه، بصوته الذي هو كالرعد، فقال سعود ومن معه في المجلس: وعليكم السلام ورحمة اللَّه تعالى وبركاته، وأخذه وأجلسه إلى جانبه، فشفع عنـده، وقـال لـه: هـذا عبـد المجيد، وأشار إليه فنظر إليه، وعفا عنه ولم يعاقبه، مع أنه كان مشترطًا إن وجـده متعلقًا بأستار الكعبة قتله، ولم يزل عبد المجيد باقيًا إلـى وقـت مـا انتهـت مـدة الوهابية، ولم يصل إليه من السوء لا كثير ولا قليل. ثم أن الأستاذ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ وعظ سعود بموعظة ارتعدت منها فرائصه، وتحيّر من صولته هو وأربـاب دولتـه،

وكانوا يتعجبون غاية العجب من أمره، مع أن الوهابية ينكرون كرامات الأولياء، ولا يقولون بشيء مما عليه القوم.

ولما كان بعد صحبتنا له أرسل إليه أمير الوهابية وقاضيها بمكتوب، وقال له: بلغنا أنك تطالع كتب محيي الدين ابن العربي، وكانت الوهابية من عمى بصيرتهم يرون أن الشيخ محيي الدين على ضلال، ويحكمون بكفره وكفر جماعته من الأولياء، فلما خاطبوا الأستاذ بذلك مع بعض كلمات، وسمع الشريف غالب وخاف على الأستاذ من شرهم لمحبته فيه، وأرسل إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: دارهم فإن هؤلاء الشياطين لا يعرفون قدر الصالحين ولا منزلتهم، فقال الأستاذ للرسول: قل للشريف نحن لا نداريهم ولا نخاف من شرهم، ولا نخاف غير الله، فليجمعوا جنودهم وليبنوا كيدهم، وليفعلوا ما شاؤوا. وجاوبهم الأستاذ بجواب شاف كاف مفسد لحجتهم مبطل لكلامهم، فقهرهم الحق وردّ كيدهم عنه، ولم يعودوا بعد ذلك إلى الحرام، وقد تخرَّبت ديارهم واضمحلت آثارهم، وصاروا في الذلة والهوان إلى الآن.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زمن صحبتنا له ملازمًا على الصلوات الخمس في المسجد الحرام، وكان علماء الوهابية يجعلون لهم مجالس في العشاء وبعد العصر، يقرّرون فيها للناس عقائدهم وأمورهم التي عليها هم، فمن وجدوه ضربوه ودفعوه إلى المجلس، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يحضر تلك المجالس، وكنا نجلس معه في باطن حجر إسماعيل، فيمر بنا أرباب دولتهم ولا يخاطبونا بشيء مما يخاطبون به الناس، وكان واحد من أرباب دولتهم يمر بنا، فإذا رآنا يقول لنا: قوموا إلى الدرس يهديكم الله، ويردد ويكرر ذلك، فيطالع فيه الأستاذ مرة، ويقول: مسكين، ويسكت عنه، فأخذ الله ذلك الرجل في تلك الأيام واسترحنا منه.

وأقام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمكة سنتين، تعدد عليه الإنكار من أهل مكة، وأكثر إنكارهم عليه لأجل عمله بالسُّنَّة، لأنه لا يتقيد بمذهب، بل عمله على كتاب اللَّه وسنته، ولم تأخذه في اللَّه لومة لائم، وإذا قيل له أن بعض السلاطين والعلماء ينكرون عليك، يقول: فليجمعوا كل من معهم ولو وافقهم على ذلك أهل الأرض كلهم، فإني بحول اللَّه لا أخاف منهم ولا أخاف إلا اللَّه. وكان دأبه لا يبالي بالفقهاء والسلاطين وعداوتهم، حتى يظن السامع من الدولة أنهم لا محالة في أنهم يبطشون به، لما يرى منهم غاية التشديد في أمره، فيحفظه اللَّه من شرهم ويرد كيدهم في نحرهم، ويأتوا إليه مذعنين منقادين خاضعين ذليلين، حتى يرى أكابر الباشوات وأشراف مكة وملوكها والوزرا وأمثالهم من أكابر الدولة، في حضرته منكسرين متملقين متذللين.

فمن جملة ما ذكر أنه كان مرة ببندر الطائف، مكث به سنتين بعد خروجه من مكة، كان الشريف غالب وأرباب دولته في غاية الغضب من جهته والانزعاج، حتى شاع عند الناس أنه إذا قدم الأستاذ نخشى عليه من القتل، فلما قدم الأستاذ لم يتم طوافه وسعيه إلا وأتى إليه واحد من جماعة الشريف غالب، فقال: إن مولانا الشريف يسلِّم عليك، ويقول لك: الحمد للَّه بقدومك بخير، فقد جاء معك الخير والبركة، وقد هيئنا لك مدرسة وآلات البيت، ومتهدًا لك بما يقوم بك أنت ومن معك من الأتباع. قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وعليه السلام، أما نحن فلا حاجة لنا في بيته ولا في مصروفه، وقد أغنانا اللَّه عنه وعن ما في يده، فتعجب الناس من أمر الأستاذ، وغضب الشريف عليه، ثم أقبل عليه وطلبه للخدمة بنفسه، واللَّه إن هذه صفة أهل السطوة الإلهية، والبطشة الحقيقية الجبارية.

وبعد وصوله المذكور أقام سنتين متوالية، ولم يخرج إلا لزيارة المدينة المنورة، فحضر بها الغلاء المشهور الذي بلغت فيه الكيلة أربعة ريالات، ولم يكن في بيته إذ ذاك شيء من الطعام ولا الفلوس الذي يشتري بها، ولم يبيتون ليلة واحدة ، وكنت أتحير من ذلك وأتعجب منه، حتى سألته عن ذلك، فقلت: يا سيدي كيف صنيعكم مع كثرة العيال في زمن الغلاء؟، فقال لي: قد حصل لنا لطف من الله شديد، لم نحتج إلى شيء، وذلك أني كنت قبل مدته جامعًا خزانة الطعام بيد أهل بيتي وبعض الإخوان، فلما جاءت مدة شدة الغلاء أخذت المفتاح منهم، ولم يكن بالمخزن شيء من الحبوب، ولا عندنا شيء من الدراهم نشتري به شيئًا، ومع ذلك ما بتنا ليلاً بلا عشاء ولا صبحًا بلا غذاء، وكنت أخرج لأهل بيتي قدر غذائهم، وأقول لهم: في البيت قدر عشائكم، أفأخرجه لكم وتأكلوه؟، ولكن بشرط وثوق قلوبكم بالله والتوكل عليه وحسن الظن به، فيقولون: نعم، وأخرجه لهم فيصنعونه بعد عشائهم ويأكلون عشاءًا ثانيًا في تلك الليلة، والأمر على هذا لم ينحل إلى أن خرج الغلاء، فلما انتهى الغلاء أعطيتهم المفتاح فلم يجدوا بالخزانة شيئًا، فتعجبوا من ذلك، فقلت له: يا سيدي فهل كان يأتيكم به شيء من الروحانيين، أو من الملائكة؟، فقال: لم يكن مما ذكرت، ولكن كفاية من الله، وعطاء من واسع فضله، فتحيّرت من ذلك، وما عرفت بأي شيء كان حال إقامتهم إلى وقتنا هذا، غير إني علمت أنه خرق عادة، وشيء من وراء طور العقول.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانِكَ الْأَكْبَرْ

وهنا وقف بنا نقل زبد تأليف ختم أهل العرفان سيدنا السيد محمد عثمان في مناقب أستاذه سيدنا السيد أحمد بن إدريس رضي الله تعالى عنه، وترك موضع إتمامها خاليًا بلا تلبيس.

وله أبيات في جنابه، وهي هذه:

سألتك بالمختار عفوًا عن الجاني ... أيا شيخنا ابن إدريس يا قطب فرداني

أسأنا وتبنا فاعف عنا وكن لنا ... بإمدادك السامي على كل أقراني

طلبناك منحًا ثم فيضًا ومنةً ... وبرًّا وإحسانًا وسترًا وغفران

فدأبك حسن العفو مع حسن وهبة ... فجد لي بذا يا نجل إدريس سلطان

وقل رب يا رحمن يا واسع العطا ... تولى بمقصود لعبدي عثمان

وأشفيه عافية وهيىء له المنى ... وأوضح له خافي أمور ببرهان

وقل لعين القصد أحمد جدكم ... أيا جدي المختار واصل لذا العان

وقرّبه حبّبه وأعطيه قصده ... فذا مقصدي يا شيخ روحي وجسماني

ويا عمدتي يا فخري إن لم تكن لي من ... يكن لي فذي الحوبات حاطت بإنسان

فلا تردني بالنبي محمد ... عليه صلاة اللّٰه تسليم رحمان

ومن بعده يغشاك ما قلت مشفقًا ... سألتك بالمختار عفوًا عن الجاني

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانك الْأَكْبَرْ

وقد أكملها درة صدفه، وجليسه في معالي غرفه، ومهبط إمداداته وتحفه، ومجد عزه وشرفه، فأورد ما أورده على جناب الحقير، وأفهم مراده ببيان خويدمه الذي زبد عنه ما سطّره من لفظه العذب المنير، فترجم لسان المقال ما أفاده علم القلب والحال، فقال: كان سيدي أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدي المشهد، محمدي المقصد، عيسوي النور والخوارق، موسوي المناجاة على جبل طور الحقائق، إبراهيمي الملة، سليماني الخلة، داوودي الخلافة، خضري اللطافة، آدمي الأسماء، جامعًا لأشتات الفضل والنعماء، كارعًا في بحر الأنوار، قائمًا بطاعة ربه على غاية الإخلاص آناء الليل وأطراف النهار، مقتفيًا لآثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التحقيق، وازنًا أفعاله بميزان الشريعة المحمدية على التدقيق، داعيًا إلى طاعة مولاه، واعيًا لما جاء به رسول اللَّه، حافظًا لأحكام الكتاب والسُّنة، وارثًا لأحوال جده بمحض الفضل والمنة.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصفر اللون، تعلوه الأنوار، مكسوًا بأنواع الهيبة والوقار، لحيته خفيفة ملتفة بيضاء، ريقه أعذب من العسل، وثغره يفيض الأنوار، واسع الجبهة كالقمر ليلة تمامه، لا يمله الجليس، بل كان من جلس زاد فى حبه واحترامه، ممتليء الجسم، معتدل القامة، أقرب إلى الطويل منه إلى القصير، عظيم الهامة، يقول من رآه: لم أرى مثل نضارة محيا وجهه، إلا ماسمعناه من أوصاف جده، قائم الأنف، أقنى العرنين، مخلص العنق من الكتفين مع شدة جماله وتوسطه، كأنه سبيكة لجين، مدور الفم، متوسط الشفتين، دقيق الأسنان، فصيح اللسان، قوي الجنان، صوته يشبه زئير الأسد في وطنه، إذا تكلم كأنما ينطق بجميع أجزاء بدنه، كلامه يصدع القلب من شدته، ويذيب الأكباد بحلاوته، ويرهب الأبطال، ويهد الأرض ويدكدك الجبال، ويطرد من القلب جيوش البطال والخيال، واسع العينين،

وقد أصفرهما شدة الخوف من الله مع شدة البكاء، حديد النظر حسًّا ومعنًى، كامل الفطانة والذكاء، طويل السواعد والأصابع، متماسك لحم العضد، واسع الصدر، فائقًا فى الجمال البارع، رحب البنان، كفه ألين من الحرير في مسه، يفوق في العطاء على وابل الغيث والبحر، فو اشوقي إلى تقبيله ولمسه، ينظر إلى أنامله وأظفاره حين يسائل، فيرى فيها إجمال العلوم الغيبية محكمًا مفصلًا، ويفهم السائل بالعلوم الدقيقة، ويبيّن له أسرار الشريعة والحقيقة، معنى المبايعة الإلهية مودع في يمينه، وعلم القلم الأعلى والنون والروح واللوح وتجليات الأحمدية نصب عينيه، نافذ الأمر في عوالم الملكوت والجبروت والرحموت، سامي القدر في مقام الإنسان الكامل، ومجالي اللاهوت، ثابت القدم، المستوي على الصراط المستقيم السوي، متفرغًا بجميع أنواع الطاعة والاستقامة، التي ورد على أن ذرة منها خير من ألف كرامة، وقد استكمل جواهر أفرادها، وأحصى ما تفرَّق من عقود أعدادها.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذا أخلاق حسنة، وأحوال مستحسنة، أحبّ الخلق وأقربهم إلى مولاه، لأنه أنفعهم لعيال الله رحيمًا بالمؤمنين، شديد الرأفة عليهم بغير مين، صادقًا مصدقًا، وعالمًا مفننًا محققًا، يمشي على الأرض هونًا على الدوام، ويعين المسكين ويرحم الأيتام، ويحمل الكل، ويرحم الضعفاء، ويصل الأرحام، ويعود المرضى ويتلطف بهم، ويخالط الأرامل، ومن لا يعبأ بهم، حليم، رحيم، رؤوف، جواد، كريم، عطوف، يجلس دائمًا كجلوسه فى صلاته، مراقبًا لله في جميع هيئاته، شديد الهيبة، عظيم الشأن، عليه سطوة كأنه سلطان، كثير الصمت إلا عن ذكر الله، مكملًا بمكارم الأخلاق المحمدية، التي لا توجد غالبًا فى سواه، متواضعًا لجلال الرفيع، محببًا عند الشريف والوضيع، وضع له القبول في الأرض، بعد أن نودي به

في السماء، كما ورد في الحديث القدسي، في من إلى ذلك الجناب انتمى، جمال ذاته الغريزي، مستويًا بجلال استقامته على الصراط المستقيم وجلال سطوته الإلهية الجبارية، ممزوج بجمال أخلاقه التي هي أحلى من الشهد، وأرق من النسيم، وألذ من الماء البارد للظمآن، والعافية للسقيم، لا ينطق إلا بما قال الله وقال رسوله، ولا يفتي إلا بالكتاب والسُّنَّة، كما هو دأبه وسبيله، تقرَّب الله بأداء الفرائض وحسن النوافل، حتى أحبه وجعله سراجًا تتقد منه جميع المشاعل ورشحه وقواه، بمعنى حديث: كنت سمعه وبصره وسائر قواه، وإن دعاه وسأله أعطاه، وإن استعاذه أعاذه من كل ما يخافه ويخشاه، رفع الحجاب فيما بينه وبينه بغير ريب والتباس، حتى استيقظ وصار لا يسهو إذا سهى الناس، كما شهدت بذلك أحواله وأنفاسه الصادقة، وأخلاقه الفائقة وهممه السابقة. وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صبورًا على أحكام القضاء، مقابلًا لما يجري من الله بغاية المحبة والتسليم والرضا. شكى إليه بعض أصحابه ضعف الأحوال من جهة تيسير الدنيا والأموال، فأجابه بقوله:

ملكت كنوز الارض طرًّا بأسرها مفاتيحها عندي وأعجز عن قوتي

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الغاية التامة الزائدة في الشجاعة والمروءة، والفائدة والكرم الفائق، والسخاء فى زمن الشدة والرخاء، تضرب به الأمثال فى الجود، وينفق من الطعام واللباس والنقود. وكان مقيمًا بأرض الحرمين وليس له مرتب من الدولة والسلاطين، مع أن الإقامة بأم القرى من غير مرتب ولا بيع ولا شراء يصعب معها الإكرام والقرى، وهو في ذلك البلد السعيد، كان على غاية التوكل والتجريد، يكرم الوافدين من جميع الجهات، ويطعمهم أفخر المأكولات، ويقسم عليهم جميع ما عنده، ويسأل عنهم ويتفقدهم ولو كثروا، ويوليهم إحسانه ورفده، فتزاحمت على بابه النساء والرجال، وانتمت إلى رحابه أهالي البيوت والأولاد، وانقطعوا بكليتهم

إليه، ورموا عليه النفقات، فكان يخرج في سائر الأيام جانفًا كبيرًا مملؤًا من اللحم والأرز وأنواع الطعام، ويسأل عمن يغيب منهم ولا يغفل ساعة عنهم، وكان له وكيل يسمى عيد، يسلمه ريالين في كل يوم جديد، ويأمره أن يشتري بهما عنبًا ورمانًا، فإذا أحضر به بين يديه أكل منه، وقسمه على سائر الضيفان، فيعم به جميعهم حتى العبيد والولدان. وسأل بعضهم أهل بيته وخزنته فقال لهم: إني أرى بحمد الله تعالى حالكم في اتساع من جهة المعايش، فهل تأتيكم من الجهات، أم لكم مرتب من الديوان؟، فقالوا: لا نعلم شيئًا غير أنّا نرى في كثير من الليالي، بعد أن نسد بابنا وننام رجالاً تسوق جمالاً، عليها جميع الحبوب والسمن وما نحتاج إليه من الطعام، فيفتحون الباب وينزلون حمولهم ويخرجون ويسدون الباب، ولا نرى من أي محل أتوا وإلى أي جهة توجهوا، فإذا أصبحنا نادى الأستاذ برفيع صوته: يا عيد قم أدخل هذه الحمول في الخزانة، فيدخلها ويكيل منها لأهل بيوته وبيوت تلامذته وجميع من هو متعلق به، حتى إذا فرغت الحمول أتت الرجال تسوق الجمال، وهكذا من فضل الكبير المتعال.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

ولقد امتدحه خالنا نسبًا وأخونا طريقة وحسبًا بقصيدة، وهي هذه:

رضـــاء الله يتبعـــه ســلام	زكـــي عرفـــه مســـك ختـــام
على من قـد عـلا مجـدًا وفخـرًا	وفي الحضـرات كـان لـه مقـام
فريـــد فـــي مقامـــات تجلّـــت	وللأقطـــاب كـــان هـــو الإمـــام
عليـه التـاج يجلـو فـي ابتهـاج	لـــه الرايـــات تعلـــو والخيـــام
فـــذا بـــدر الولايـــة خيـــر هـــاد	لـــه ســـر بـــديع لا يـــرام
وحيـــد فـــي مباديـــه حميـــد	جليـــل فاضـــل بـــر همـــام

إذا عاينتــــه تلقـــاه نـــورًا ... ولــيس النــور يخفيــه الظــلام
وإن ناديتــه فــي كــل كــرب ... تجــد ليثًــا ميامنــه ســهام
وإن أبصــرت للأقــوام شــربًا ... فمــن راحاتــه ســكروا وهــاموا
وإن ذكــروا لأهــل الوقــت غوثًــا ... فنجــل إدريــس أعلاهــم مقــام
تجمّــل بالصــحاح ونــال منهــا ... شــهودًا عنــده تشــفى الســقام
شــمائله حــوت كــل المزايــا ... وكـــل الواصـــلين لهـــم هيـــام
لــه فضــل عمــيم لــيس يحصــى ... وكـــل العاشـــقين لهـــم مـــدام
ومـــا الكاســـات إلا مـــن طــلاه ... وخمرتـــه لـــذوقتها كـــلام
وطلعتــه تفــوق الشــمس حســنًا ... وخلعتــه لهــا الأرواح ســاموا
رفيــع القــدر لــيس لــه مثيــل ... جميــع العــالمين لــه اســتقاموا
لــه شــرف لــه مــدد غزيــر ... لـــه جـــاه وســـيع واحتـــرام
لكـــل النائبـــات لنـــا مغيـــث ... كذا في المحـل مـزن وانسـجام
فـــذا بـــدر طوالعـــه ســـعود ... وذا ليـــث لمنكـــره حمـــام
بـــذكر الله كـــان لـــه زئيـــر ... ونـــوم الليـــل كـــان لـــه حـــرام
بهـــي اليـــد للـــذوّاق طـــرًّا أنـــال ... ومـــا لذايقـــه انعـــدام
وقد نال التجمل مـن كـريم إلـى ... الســـبطين أبـــاه انكـــرام
وقد اعتصم الحبيب بحبل ربـي ... وحبـــل الله لـــيس لـــه انفصـــام
ولـــي قـــد تخلّـــق مـــن نبـــي ... بدايتـــه إلـــى الرســـل اختتـــام
نهـــيم بـــه ونـــذكر كـــل حـــين ... رضـــاء الله يتبعـــه ســـلام

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانك الْأَكْبَرْ

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له كشف جليّ ومقام عليّ، يرقى بلفظه في أقل لحظة إلى أعلى الدرجات، ويوصل السالك إلى أرفع المسالك والمدارك وأعظم المكانات، كما اتفق لأستاذنا الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما لقّنه الذكر، اشتغل به ما شاء الله، فدعاه يومًا من الأيام وأعطاه الحزبين العظيمين، وقال له: هييء لك محلاً خاليًا سدد جميع المسام، واشتغل بالذكر والعبادة، فعند الظهر يأتيك الفتح من غير كلام، قال الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففعلتُ كما أمرني ودخلتُ الخلوة، فلما كان وقت الظهر وقع لي ما وعدني به، فرأيت سقف الخلوة انفرج، ونزل عليَّ نور عظيم، دخل مسام ذاتي، فوقعتُ مغشيًا من الظهر إلى الضحى من اليوم الثاني الذي بعد يوم الفتح، فلما أفقت صار جسمي كله عيونًا تنظر، وأبصر من أمامي ومن خلفي ومن جميع جهاتي، وكشف لي عن عالم الملك والملكوت، وشاهدت الأرض من قاف إلى قاف من محلي، وغبُت في حب الله، فلما استطعتُ القيام أتيت إليه، فلما رآني قال لي: يا أخينا عثمان أنت إلى الآن في شهود الأكوان هاه، فشاهدت الديوان الأعلى، واتصل شهودي بالحضرة الإلهية إلى هذا الآن، ولم يزل يرقبني بلفظه، ويربيني بلحظه، حتى إني كنت يومًا جالسًا بين يديه، فسألته عن أرض السمسمة، فلما قلت له: ما شاهدتها، قال: هاه، فوجدتُ نفسي في تلك الأرض، هكذا كان حاله كلما سألته عن مقام عال، يوصلني إليه بالتوالي، فاتفق له يومًا سأله عن السطح الذي هو عبارة عن بلوغ أقصى درجات الولاية المعبر عنه بالباب، وما وصل إليه من كمل الأغواث إلا القليل، كسيدي محيي الدين وسيدي طيفور وأشباههم، فلما سألته عن هذا المقام الذي هو المنتهى والختام، وليس وراءه مرامًا لمرام قال له: يا أخينا عثمان أنت إلى الآن ما وصلت السطح هاه. فبمجرد قوله هاه، ترقى أستاذنا الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أعلى مقام المكاشفة والفتوة، الذي ليس بعده إلا الرسالة

والنبوة، وخلا هو وأستاذه الأكبر بالمنزل الرفع الأشمخ، وصار أعلى الباب والبرزخ، وقد انتشر من كل منهما الإمدادات، وفاضت من أبحرهما الفيوضات، وقد استحكما في مجالي الأسماء المعبر عنها بالحضرات، حتى أفاضت عليه أعين الذات، وتراكمت عليه أنوار الصفات.

وكان سيدي محمد عثمان يصلي خلفه يومًا تحت الميزاب، فصاح صيحة شديدة اقشعرت منها الأجساد وطاشت الألباب، وسئل بعد تمام صلاته عن سبب صياحه، فأجابهم أنه من شدة تراكم الأنوار والإمدادات التي على مصباحه، قال: ورأيتُ في حالة الصلاة مددًا ينزل على أستاذي في مصلاه، لو سرى ذلك المدد قدر مغرز شعرة من لحيته على سائر أهل الأرض الموجودين، لآمن الكفار كلهما بسر بانه، ووصل الكل إلى أعلى مقام الصديقين، فأعظم به من كامل، يرغب من ليس فيه أهلية إلى الإيمان بالله، ويرقيهم أكمل الدرجات العلية.

وكان سيدي أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي يومًا بمزدلفة فصاح صيحة شديدة، حتى فرَّ جميع المأمومين من ورائه، ولم يثبت إلا سيدي محمد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه وقف إلى تمام الصلاة، فسألت سيدي محمد الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن سبب هذه الصيحة؟، فقال: من غيبتهم في أنوار العرش، فإن كل من وقع له هذا الشهود لا بد أن يصيح، وقد وقعت لسيدي محيي الدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ذكروا، ووقعت لسيدي محمد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولكثير من الأولياء.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

وكان سيدي أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرًا ما يتلو القرآن في ركعة الوتر، وكان يحفظه بالروايات، ويردد الآية الواحدة في قراءته بجميع رواياتها، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي في كرامات الأولياء، قال: وإنهم يختمون القرآن سبعين ختمة في

اليوم الواحد. فأنكر عليه بعض جهابذة مكة بقلبه ولم يصرّح بذلك، فلما كان وقت السحر نزل إلى الطواف، فوجد ذلك الرجل العالم يطوف بالكعبة، فأبدى سيدي أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القرآن من أوله، وقرأه قراءة مرتلة مجودة برفيع صوته يسمعه ذلك العالم، حتى انتهى حرفًا حرفًا إلى آخره، قبل أن يكمل شوطًا واحدًا، بل الشك هل بلغ نصف الشوط أم ما بلغه، فسلَّم ذلك الرجل وزال الشك من قلبه، وزاد فى تعظيم شأن الأستاذ وأحبه.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان جالسًا مع أصحابه، فجاءه رجل من بلاد بعيدة، قاصدًا زيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعه أموال، مراده أن يفرقها على الفقراء وفرَقها، وقال: يا سيدي إني كنت مشترطًا على نفسي لا أفرقها إلا في المدينة المنورة بعد وصولي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوقع الرجل مغشيًا عليه، وحصل له الشهود المحمدي من ذلك اليوم. وجاء إليه رجل قاصدًا زيارته فلما رآه وقع مغشيًا عليه، فقال: مسكين. ما حصل له شهود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا هذه الساعة.

وحكي عن السيد محمد بن علي السنوسي أنه قال: قرأتُ علوم الظاهر حتى أتقنتها وحققتها، ومكثتُ في قراءتها ثلاثين سنة، فقصدتُ الحج إلى بيت اللَّه الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، فلما شاهدتُ سيدي أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسمعت تقريره في العلوم الظاهرة والباطنة بما لا تسع العقول بمثله، وأثبت له من جميع العلم، وأنكرتُ عليه بباطني في عدم اتباعه للمذاهب، وقلتُ: هذا خارجي، فرأيتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة من الليالي، فقلتُ: يا سيدي يا رسول اللَّه، أطلب منك الفتح، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فتحك على يَدَيْ أحمد بن إدريس، فلما أصبحتُ ترددتُ وكتمتُ رؤيتي، وما علمت بها أحدًا، ثم رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة ثانية، فطلبت منه الفتح، فأجابني بجوابه الأول، وترددتُ فرأيته

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثالث مرة، وقال لي: فتحك على يَدَيْ أحمد بن إدريس، فترددتُ وقلتُ في نفسي: أأسلك عليه علم الطريق وهو خارج عن المذاهب؟. فلما ذهبتُ إليه لأجل استماع الدرس في العلوم الظاهرة وجلستُ بين يديه، قال لي: يا محمد، أما تكفيك الرؤية التي رأيتها أولاً وثانيًا وثالثًا، وكشف لي عن ما في ضميري قبل أن أكلم به أحدًا، فسلمتُ له من ذلك اليوم، وسلكت على يده طريق القوم.

وكذلك الشيخ حسن تلميذ سيدي محمد أنه قال: حججتُ مع بعض الإخوان وقضينا مناسك الحج، وتوجهنا إلى المدينة المنورة، فقال لي صاحبي: بعد أن نقضي زيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه معي إلى زيارة سيدي السيد أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإني سمعتُ عن بعض تلامذته يحكي أنه قال: من صحبنا ثلاثة أيام كتب في ديوان الأبرار، فقلتُ: يا أخي القصد زيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما علينا من بأس إذا لم نزر سيدي أحمد بن إدريس أو نزوره، فلما قضينا زيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجهنا إلى سيدي أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما سلمنا عليه وجلسنا بين يديه، قال: هل زرتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فقلنا له: نعم، فقال: يا إخواننا إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: من زارني ولم يزر أبي فما زارني، فأيقنتُ أنه كاشف على مقالتي لصاحبي، فطلبت منه العفو والمسامحة، وأخذتُ عنه الطريق.

ولما حجَّ الشيخ أحمد الصاوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ت أغروه علماء مكة على مُسآلة الأستاذ واختباره، فلما حضر بين يديه سأله وأجابه عن كل ما سأله، ثم قال: يا صاوي دع عنك هذا، وعجّل بالسير إلى المدينة المنورة فقد قرب وفاتك بها،

فودعه بعد أن سلك عليه الطريق، وسار فلما وصل المدينة توفاه الله بها، عليه سحائب الرحمة والرضوان.

واجتمعوا علماء مكة وجمعوا له أحاديثًا موصولة ومقطوعة وضعيفة وصحيحة، وخلطوا أسانيدها ومسائلاً من فنون العلم ليختبروه بها، فلما جلسوا بين يديه أجاب كل واحد منهم عن مسألته، ورجّع الأسانيد إلى الأحاديث، وتكلم في العلوم بكلام صحيح معقول، يكاد يخرج عن طور العقول.

وكذا حكي عن الشيخ مختار الشنقيطي أنه قال: اجتمعنا ونحن أربعة من العلماء، وأنا أقلهم علمًا ومعرفة وورعًا، بل قال: أنا أقلهم في كل شيء، وخلطنا له بعض أحاديث كذلك مقطوعة وموصولة، وأدخلنا سند هذا في هذا، لأجل أن نختبره، فلما جلسنا بين يديه أجابنا عن جميع ما سألناه، ورجّع كل سند إلى مكانه في حديثه، وتكلم فيها وفي غيرها بكلام تعجز عنه الفحول.

ولما حجَّ الشيخ أحمد الطيب السناري تلميذ الشيخ الأمير، وكان معه شرح الشيخ محمد مرتضى على القاموس، أيضًا قد جمع له مسائلاً لغوية وأغلوطات خفية، فأوضح سيدي أحمد مشكلها وحلّ له مقفلها، وسأله عن مسألة واحدة، وقال له: أمهلناك إلى ثلاثة أيام، فلما مضت الأيام حضر بين يدي الأستاذ وعجز عن رد الجواب، فقال له سيدي أحمد: هذه المسألة في كتابك شرح الشيخ مرتضى على القاموس، في ورقة كذا في سطر كذا، وأفاده عن سطرها التي هي فيه، فلما فتح كتابه وجدها كما قال، فزال عن عين قلبه جميع الرين والإشكال، وصحح عليه علومه.

له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حكايات كثيرة من هذا الباب، حتى أن سيدي محمد يس الميرغني عم سيدي محمد عثمان ميرغني، كان عالمًا جليلاً، قال: ورد علينا العلماء من جميع الجهات فما رأينا مثل سيدي السيد أحمد بن إدريس.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحفظ كل ما يراه ولا ينساه أبدًا، حتى إن بعض علماء مكة ألَّف رسالة، وأتى عنده ليصححها عليه، فقال له: هذه الرسالة حفظتها بالمغرب في كتب وجدتها في خزانة، حفظت جميع ما فيها من الكتب، وهذه من جملتها.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانك الْأَكْبَرْ

قد ألَّفتُ في حضرته قصدية همزية، مع قلة اطلاعي على علوم النحو والعربية، راجيًا من الله أن يسبل رداء ستره بكرة وعشية، آمين:

آلاف ألــــف تحيـــة ورضـــاء ... وعظـيم رحمـة نشـر كـل حبـاء
مـن حضـرة الـذات العليـة عرفهـا ... متعطّــــر بحضـــائر الأســـماء
وبســائر الأوصــاف يسـطع نورهـا ... مــن ذات أحمــد ســيد الشــفعاء
تهـــدى لـــه منـــه إليـــه بـــدرة ... مخبــوة فــي بحــر قــدس عمــاء
وتنيـل شـيخ الخـتم والـد روحـه ... ســر الإحـاطـة أصـل كـل عمـاء
أسـنى هـدى فـي غيـره لا ينجلـي ... إلا بـــه إذ منـــه نـــور ضـــياء
العنصــر الأعلــى المعظـم شـأنه ... مجلـي الهدايـة شـمس كـل ثنـاء
عــرش الكمــال وبالجمــال جلالــه ... متحجــب وهــو القريــب النــائي
أوج التجلــي فــي دواويــن العــلا ... معنـى التجلـي عـز فـي الأشـياء
إنســان عــين الكــل ســام قــدره ... أوصــافه جلــت عــن الإحصــاء
وهــو الترقــي والتلقــي وعنــه لا ... يقضــي ســواه فــي عظـيم رجـاء
معنـــى الثـــرى وثـــق العـــرى ... غوث الورى نور جلا عن حندس الظلماء

حــــام الحمــــى مــــروي الظمـــا   مجلي العما بدر سما حاوي حلا الأنباء
سيف العدا نهج الهدى قطر الندى   مجلـي الصـدا غيـث مـن البلـواء
وحب الفضا مجلي القضا عين الرضا   قطـب النهايـة أعظـم العظمـاء
مـاحي الشـقا فـتح اللقـا سـر التقـى   مـن قـد رقـى فـي مـنهج العليـاء
أصل العطا خير الوطى كشف الغطا   مــولى العنايــة كاشــف الضــراء
مبدي السـنا رفـع العنـا كنـز الغنـى   وبـل الهنـا نيـل المنـى لا مـراء
حقًّـا جـرى منـه لـدى أم القـرى   خيـر القـرى فـي الضـر والسـراء
قـد كـان أمـة كـل خيـر قانتًـا   عبـدًا حنيفًـا شـاكر النعمـاء
والمجتبـى والمهتـدى فـي سـره   نهجًـا قويمًـا قــاطع الأهــواء
عرشًا وباسـم الـذات غيبًـا قـد سـما   أعــلا منصـة سـائر الأسـماء
فـي حضـرة القـدس المنيـع أجلـه   تختًـا رفيعًـا واهــب الأسـماء
فهو الخليفـة غـوث أغـواث الـورى   شـمس الهدايـة سـيد القربـاء
ميزاب أهـل القـرب جـامع فضـلهم   كشـفًا ورشـفًا أكـرم الكرمـاء
يـا هيكـل الأنـوار يـا بـاب الهـدى   هبنـا الرضـا يـا أسـعد السـعداء
يـا شـيخ ختـم القـوم يـا بحـر النـدا   أجلـي الصـدا يـا أفضـل الأمنـاء
ألقــي علــيّ محبــة يــا ربنــا   نــوّر بنــورك ظلمــة الأحشــاء
واغفـر ذنـوبي كلهـا يـا سـيدي   ابـدل لصـحف السـوء حسـن ضـياء
واعطف قلوب الخلق نحوي واسقني   شـربًا طهـورًا مــذهب الأدواء
واكشف ظلام الجسم واسعد روحـه   وامــلأه نــورًا يــا مجيـب دعـاء
وادخـل أحيبـابي حضـيرة قدسـكم   وارفعهـم فـي منتهـى العليـاء
أبلـغ صـلاة الـذات مـع أسـمائها   والوصـف أحمـد خـاتم الأنبيـاء
والآل والأصـحاب طـرًا حشـوها   آلاف ألـــف تحيـــة ورضـــاء

رأى بعض الصالحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أكابر أهل المتصل، وكل واحد يذكر طريقته ويصححها على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طريقتي هي طريقة أحمد بن إدريس، فقالوا: يا رسول اللَّه ألسنا كلنا على طريقك؟، قال: كلكم على طريقتي، ولكن طريقتي الخاصة هي طريقة أحمد بن إدريس.

ورأى بعض الصالحين السيدة فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأدخلنا في حماها دنيا وأخرى، فقال: قر عينك ابنك إحمد بن إدريس؟، فقالت له: كيف لا يقر عيني، وقد قرّ عين أبي، ولولا أنه ابني لقلت أنه أبي.

ورأى بعض الصالحين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه الخلفاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال له: يا رسول اللَّه أين أحمد؟، فقال: أنا أحمد ثانيًا وثالثًا أنا أحمد، قال: فقلتُ في نفسي: أنا أسأله عن أحمد بن إدريس فيجيبني عن نفسه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا هو وهو أنا، مرتين أو ثلاثة، فانظر يا أخي هذا الاتصال الشديد الذي ليس وراءه مرأى ولا بعده مزيد.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الشأن على أحوال حسان، لا يعبر عنه لسان، ولا يدركه جنان، بل إنما فضله الزمان وفيضه الغيث والطوفان، وأيامه مستنيرة مشرقة، وإمداداته غزيرة متدفقة، وأوقاته معمورة بالصلاة والذكر، ولياليه مزهرة مضيئة في الدهر، الذي أشار إليه بعض أهل العرفان يأتي آخر الزمان، من يفسر القرآن بالقرآن، فإنه كان يفسّر الآية بالآية، وذلك من عظمته أعظم دلالة وأكبر آية، وقد روي عنه أنه قال: لو أردت أن استنبط جميع الأحكام الشرعية من سورة الفاتحة لفعلت،

وهذه رشحة من بحاره وقطرة من وابل أمطاره، فإن حقيقة حاله لا يعرفها إلا جده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتواترت صفاته في باطن لحده ليلة السبت بين المغرب والعشاء في شهر الله رجب الأصب الأصم المفرد المحرم، ودفن صبيحة ذلك اليوم واحد وعشرين منه، سنة ألف ومائتين وثلاث وخمسين من هجرة سيد المرسلين في أرض اليمن بقرية تسمى صبيا. أمطر الله على ضريحه سحائب رحمته ورضوانه الأكبر، وأفاض علينا من بحر فيضه الذاخر مددًا يصلح الباطن والظاهر، آمين.

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

وقد مدحه الراجي رفع الوسواس والتلبيس، من حضرة مولاه ابن شيخنا الخليفة النصيح، بقصيدة فريدة جامعة لأوصافه الحميدة، وقد ختمنا بها الكتاب، لأنها أفصحت بكل ما فيه من قشر ولباب:

عرّج أخي إلى الحمى الرباني	وأقر السلام أهيل ذاك الشان
واقصد إمامهم وجامع فضلهم	قلب الوجود خليفة الرحمن
شمس الغياهب بدر كل دجنة	قطب العجائب واحد الأزمان
بيت التجلي في منصة عرشه	عرش الكمال المشهد الإحسان
نور سما أبراجه نفس العما	بالمعطي بل القوي العلي الديان
فلك الولا الحاوي لنور منه بالـ	أسماء والأوصاف وسط جنان
حب الإله فكان منة كما يشا	فأحاط بالإيجاد والإمكان
عظمت عليه نعمة الله التي	في طيها درج الكمال الداني
فتواضعت لشموس عز فخاره	كبراء أهل المشهد العرفان
وتزممت بزمامه في عصره	أهل العلا السامي بكل مكان

لـو فـاض منـه قـدر مغرز شعرة   نـــور لظـــاهر هـــذه الأكـــوان

لمحـــى اســمها واعــدم كونهـــا   وأعادهـــا للواحـــد الـــديان

كـــل الوجـــود ككـــرة فـــي يـــده   أو رشـــحة مـــن ذاخـــر الطوفـــان

نادى منادي القـدس فـي مـلأ العـلا   بجمالـــه وجلالـــه الســـبحان

فعنـــت وجـــوه العـــارفين لوجهـــه   وتعطّـــرت مـــن فضـــله الـــثقلان

فتمســـكت بحبالـــه الـــوثقى أهيـــ   ـــل الفضـل فـي كـل مـن الأزمـان

هـــذا الـــذي وســع المعـــارف قلبـــه   فالكـــل فـــي منســـوب ذلـــك فـــان

هـــذا الـــذي قـــد قـــام حقًّـــا باطنًـــا   بـــل ظـــاهرًا بحقيقـــة القـــرآن

هـــذا الـــذي قـــد قـــام صـدقًا ظـــاهرًا   بـــل باطنًـــا بشـــريعة الفرقـــان

هـــذا الممـــد بالكمـــال الأحمـــدي   هـــذا وريـــث محمـــد العـــدنان

هـــذا الـــذي تبـــع الرســـول بســـيره   وبجهـــده فـــي الســـر والإعـــلان

هـــذا أبـــو البركـــات هـــذا جـــدنا   هـــذا مربـــي الميرغنـــي عثمـــان

هـــذا خزانـــة فيضـــنا ومـــدادنا   هـــذا مرقـــي خـــاتم العرفـــان

هـــذا ولـــي عطاءنـــا ونوالنـــا   هـــذا عمـــيم الفـــيض والإحســـان

فمـــديح أحمـــد مدحـــه ومديحـــه   مـــدح لأحمـــد خـــاتم النبيـــان

لا تجهلـــوه فإنـــه النـــور الـــذي   ســـجدت إليـــه ملائـــك الـــرحمن

لا تنكـــروه فإنـــه حـــق تنـــزل   مـــن عـــلاه لرتبـــة الحـــدثان

أو خلـــق تشـــبيه تقهقـــر راجعًـــا   مـــن درة لحقيقـــة الإنســـان

فســـما هنـــاك فكـــان منـــه لـــه بـــه   حتـــى تقـــدّس فـــي جميـــع الشـــان

فهـــو الـــذي وفـــا العبـــودة حقهـــا   وهـــو الفريـــد الســـيد الصـــمداني

وهو الخشـوع الخاضـع المتبتـل الـــ   بـــاكي لمـــولاه مـــدى الأزمـــان

فـــي ليلـــه ونهــــاره بظهــــوره وبطونــــــه وبســـــائر الأكـــــوان
مســـتغرقًا فـــي ذكـــره وشـــهوده بمجـــــامع الأرواح والأبـــــدان
معطـــي الحقيقـــة بالشـــريعة حقهـــا متســـــرمد الوجـــدان والهيمـــــان
متوشـــحًا ســـيف الأمـــارة دائمًـــا بـــين الأكــــابر شــــامخ الســـلطان
وتقـــر كـــل العـــارفين لفضـــله فـــي القـــدر والتمكـــين والعرفـــان
ومثالـــه شـــمس الكمـــال وكـــل نجـــم عـــــن مطالعــــــه عــــديم بيـــــان
قـــد قلـــت فيـــه بـــه وعنـــه وأنـــه عمـــــا أقـــول منـــــزه الشــــنآن
وجميـــع قـــولي فـــي عظـــيم جنابـــه ورحابــــــه كمقالـــــة الهــــذيان
حاشا وكـــلا أن تحـــيط بصـــاحب الـــ وجـــه الإلهــــي ألســــن الأكـــوان
يا واهـــب التكميل يا شـــمس الهـــدى يــــا المجتلـــى بمحاســــن الألـــوان
يـــا ســـيد الســـادات يـــا غـــوث الـــورى يـــا ابـــن الرســـول محمـــد العـــدنان
يا ســـيدي يـــا أحمـــد بـــن إدريـــس يـــا ســــاقي الوفـــود بكفـــك الهتـــان
هبنـــا بفضـــلك نفحـــة تمحـــو بهـــا عـــن ركـــب قصـــدك ســـائر البلـــدان
واشرق شـــموس الـــذات فـــي مشـــكاتها لنكـــون فـــي أعـــلا الحمـــى الربـــاني
واقـــدح زنـــاد النـــور فـــي أجســـامنا ونفوســـــــنا وعقولنـــــــا وجنـــــان
وافـــتح مســـامع قلبنـــا وفؤادنـــا للاجـــــتلا بكمالـــــك الوجـــــدان
واجـــز بـــأمر الفـــتح عـــن طـــه البشـــير محمــــــد ســــــر الثنـــــا الإنســــان
دامـــت مـــواهبكم وفـــاح أريجهـــا بنــــوالكم فـــــي الســـــر والإعــــلان
خيـــر يعـــم العـــالمين جميـــعهم ويغيـــــثهم مــــــن جملـــــة الأحـــــزان
وتخصـــه بمحمـــد وبأحمـــد وبذاتـــــه فـــــي الجهـــــر والإبطــــان
حتـــى يكـــون الكـــل جنـــب جمالـــه مثـــــل الســـــوى للواحـــد المنـــان

وتـــذيقنا مـــن فضـــله ونوالـــه ... فضـــلاً وطـــورًا لـــذة الإيمـــان
حتـى نكـون بمحـض فضـل إلهنـا ... مجلـــى لهـــذا الهيكـــل النـــوراني
وتزممـــوا بزمـــامكم وتعـــانقوا ... بركابـــه يـــا ســـائر الإخـــوان
وتوســـلوا بجنابـــه وتحصّـــنوا ... بحصـونه مـن كـل خطـب شـان
وتجمعـــوا كـــلا لنشـــر ثنائـــه ... مـــن كـــل قطـــر قاصـــيًا أو دان
وصـفوا إليـه واعملـوا بمثـل هـذا ... اليـوم فـي الشـهر الحـرام الشـان
رجب الأصم لواحـد منـه وعشـرين ... تنـــادى ســـائر البلـــدان
واســتمطروا مــن فــيض وابـل غيثـه ... مـــدد التلقـــي غايـــة الإيقـــان
واستنشـــقوا مـــن مجتلـــى أنفاســـه ... روحًـــا تنيـــل مشـــاهد الإحســـان
كـي تشـربوا مـن سلسـبيل كمالـه ... ورحيقـــه الصـــافي اللذيـــذ الهـــان
وصـلاة ربـي مـن حقيقـة كنهـه ... تغشـــى محمـــد قبلـــة القـــرآن
طـــه ويـــس الـــذي فـــي قدســـه ... ضـــربت عليـــه ســـرادق الإحســـان
ورضـاء رب العـرش يغشـى دائمًـا ... فـــي ســـائر الأوقـــات والأزمـــان
مولى المعالي أحمد بـن إدريـس مـا ... دامـــت مواهبـــه علـــى الإخـــوان
مهمـا اجتلـى اللاهـوت فـي ناسـوته ... فأحـــاط بالإيجـــاب والإمكـــان

عَبِّق اللَّهُمَّ ضَرِيحهُ الْأَنْوَرْ بِمِسْكِ خِتَامِ رِضْوَانكَ الْأَكْبَرْ

اللَّهُمَّ إنـي أسـألك بـذاتك العليـة وصـفاتك الأزليـة، ومظـاهرك الكبريائيـة وحضائرك الأسمائية، وسبحات وجهك المحرقة، ومظاهر كنهك المطلقة، واسمك الأعظم المحجوب، ونبيك الأكرم المحبوب، وكلامك الأزلـي القـديم ورسـولك الذي آتيته سبعًا من المثاني والقرآن العظيم، فأتحفته بمعـاني الصـفات وأسـعفته بقرآن تجلي الذات، وأيّدته بك في جميع الحضرات، وخاطبته فى كتابك المكنون

بقولك: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، وأطلعته على جميع الشؤون، وخصصته بأحكام الظهور والبطون، يا من أمره بين الكاف والنون، وإذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

اللَّهُمَّ إنّا نسألك ونتوسل إليك بنور ذاتك، الذي أشرق وسما وطلعت به شمس الحقائق الغيبية، خلف سرادقات حجاب العمى، وأضاء به فلك الألوهية المحيط بالأسماء، وتعيّنت فيه ربوع حضائر جميع الأسماء، وتفجرت منه عيون المظاهر، وعرف به معنى الأول والآخر، أن تشهدنا رفيع تعاليك، وتدخلنا جميع مجاليك، وتفتح لنا باب التجلي القديم الأحدي، وترفعنا فوق البساط الأحمدي، بعد أن تؤيدنا بالاستقامة الكلية، في جميع الأحوال القولية والفعلية، وتطهّرنا من عموم الأرجاس، وتحفظنا من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، وتحققنا بخالص العبودية التي ليس لها شائبة ربوبية، وتثبّتنا على الصراط المحمدي القويم، ، والمنهج الأحمدي المستقيم، وتبرز فينا لطيف نفسك، ونور حقيقة قدسك، الذي أودعته في حقيقة آدم، وخلقته من أجله، وسخّرت له أفراد العالم، وتأهلنا لخدمة جنابك الإلهي، وتوفقنا لاتباع الأوامر واجتناب النواهي، وتمنحنا الفتح الكبير العالي، حتى نسبحك بكل لسان حالي ومقالي، ونوفي بذلك كل ذرة من ذراتنا، بل كل شعرة من أبداننا وذواتنا، وتوفّقنا للقيام بواجب الشكر العميم الصحيح، كي نسبّحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا، إنك كنت بنا بصيرًا، بأنواع التهليل والتكبير والتسبيح، وادخل اللَّهُمَّ في مسام ذواتنا نور تجليك الذاتي العام، حتى يعم جميع أجزاء البدن والروح والعقل والدم والعصب واللحم والعظام، ويغلب لطيفنا على كثيفنا، وتتحقق أجسادنا بما لأرواحنا من العلوم والأحكام،

وأزل عن جميع الجواهر والأعراض أداء العلل والقواطع والأغراض، وظلمة الشك والغيرة والرياء والأمراض.

واكشف لنا جودك المحض في كل شيء وفي لا شيء، وفي الجمع بالوصفين حتى نعرفك حق معرفتك، ونمجدك بمجامع مجدك، ونسبّحك بلسان كل جوهر فردي سيال، وعرض قائم بهما وبما يجب على الجميع من شكر الخالق، وتلقي ما يخص الكامل من النور المحيط الدافق، حتى يفيض منا إمداد كل رقيقة خلقية، من كل حقيقة إلهية حقية، وأجمع لنا أذواق جميع الواصلين إلى حضرتك، وأطلعنا على بيت خلوة كل من سرى فيه سر إمدادات أسمائك وصفاتك، وتملأ بشهود تجليات كبريائك ووجود ذاتك، في كل لمحة ولحظة من أزل أزلياتك إلى أبد أبدياتك الإلهية.

إلهي قد دعوناك ونحن موقنون بالإجابة، فانشر فى كلياتنا وجزئياتنا أحكام الخلافة عنك والنيابة، إلهي قد آمنا بك، وصدقنا بك، وبما بلغنا عنك من المواهب والفضائل فبلغنا إياها بأسرها، وزدنا من فضلك الواسع ولطفك الشامل. اللَّهُمَّ وما نسيناه أو أغفلنا عنه من واجب شكرك، أو جهلناه من رفيع قدرك، فذكرنا به وأذكرنا عندك، وتب عنا فى أداء ما يجب علينا، وأسبل علينا رداء سترك، فإنك أنت الصاحب في سفرنا.

إلهي حلِّي أستاذنا بالأخلاق المحمدية، وسلّكه على منهجه حتى يعلم سر تجليه في الواحدية، ويشهد العين القيومية، المستلزمة بكل سبوحية قدسية، الموصوفة بالأسماء والصفات الأزلية، ويدرك معارف تجرده ولطائف تفرده في كنه الأحدية، واختفائه في غيب العما بلطيفة الأحدية، وانفراده بتجليات الذات للذات خلف سرادقات معاني الأسماء والمسميات، من حيث لا تفي بذلك

عبارات، ولا تؤميء إلى ذلك إشارات، وألحقه يا اللَّه بجلال نهاية مراتب حقائق أحمد، وحققه بظاهره وباطنه وعلوه وسموه فى كل مهبط ومصعد، وارفعه فوق بساطه الأعلى الإشراقي الجامع لأحكام الغايات، وامنحه نور كماله الآجلي الإطلاقي في ميادين التجليات الذاتيات، واجعله إياه في لفظه ومعناه بسر لا إله إلا اللَّه.

يا نور الأنوار، يا سر الأسرار، يا نهاية النهايات، صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه أولي المناصب والخصوصيات، وبلغنا يا إلهي ما طلبناه من محض فضلك وجودك وكرمك، وتمم لنا جميع القصد والمرام، وحققنا بما حققته به من التجليات الذاتية والأسرار الصفاتية والأنوار الكبريائية والحضرات الأسمائية، حتى نعرف الحرف المحجوب الذي تحيّرت في فهمه ألباب جميع الأنام، وكمّل به جميع نقصنا، لنفهم حقيقة الإنسان الكامل المودعة في كل فرد من أفراد هذا النوع الآدمي على التمام، وندرك الحقيقة الكلية الجامعة لأحكام الأزلية والأبدية، ونعلم سر الإحاطة الذي هو المنتهى والختام، يا اللَّه يا حي يا قيوم، يا مالك الملك، يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، وصلَّى اللَّه على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم اللَّه آمين.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على مولانا محمد وآله، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم اللَّه. وبعدُ، فقد تمَّ بحمد اللَّه طبع مناقب القطب الأوحد والفرد الأمجد، الكامل الرباني والغوث الصمداني، إمامنا الأعظم سيدنا السيد أحمد بن إدريس، تأليف تلميذه الأكبر مربي المريدين ومرشد السالكين ختم أهل العرفان، الميرغني المكي سيدنا السيد محمد عثمان، قدس اللَّه سرهما، ولتمام النفع رأينا أن نضيف إليها بعض قصائد فطاحل علماء اليمن، وبعض مدائح الإخوان المحبين والمنتمين لجنابه الرفيع، رزقنا اللَّه خالص محبتهم وصادق الأدب معهم، آمين.

كامل الأحمدي

قال فيه الأستاذ الوجيه عبد الكريم بن حسين العتمي، هذه القصيدة الفريدة، وقد كثر عند إنشادها البكاء والنحيب، وذلك عند سفر مولانا الأستاذ الأكبر، قدّس اللَّه سره، من زبيد اليمن:

أما آن أن يستوقف الركب منشد ... وينجد ملهوف الشكاية منجد

على رسلكم لا تهملوها فإنما ... مواطئها أحشاء قوم وأكبد

خذوا من ثرى آثارها قبضة لنا ... فطيب ثراها للنواظر أثمد

ألم تعلموا أن العقيق تشعبت ... مجاريه في خد الحزين تخدد

وخرّت دموع العين قبل فراقكم ... لما بعده فاليوم للأمس مسعد

ألا فاذكرونا طوَّل اللَّه عمركم ... فقد قال مخدوم الصبا غاب هدهد

على أننا لا نعرف الخبء إنما ... بنا ما بنا مما يقيم ويقعد

قصور التداني شامخات بلمكم ... وعجز عليه شاهد الحال يشهد

ونحــن وإن كنــا شــيوخًا فإنمــا لأحلامنــا مهــد الأصــاغر يمهــد
وقد رضعت من حافل الفيض عنكم لبــان هــدى يــروي القليــل ويرشــد
ألــم تعلمــوا أن الرضــاع لمــدة فمــا كملــت فاســتكملوها واســعدوا
أبــا اللّٰه أن ينــأى بنــا طلــب العــلا علــى كيــف مــا كنــا فأحمــد أحمــد
نــزلتم بنــا لا بــل نزلنــا لأننــا وردنــا حياضًــا لــم تكــن قبــل تــورد
كأنــك حــوض المــزن طاطــأ رأســه فيــا حبــذا مــنكم شــهود ومشــهد
وإنــك ظــل اللّٰه مــد رواقــه تفيــأه منــا قريــب ومبعــد
وإنــي للثــاني فغــارة مشــفق عليــه لــئلا يشــبهن يومــه الغــد
وصــل بصــلاة اللّٰه طيــب ســلامه علــى مــن عــلاه دائمــا يتجــدد
محمــد المحمــود ذاتًــا وعنصــرًا مــع الآل والأصــحاب مــا اللّٰه يعبــد

وللعلامة اللوذعي الشيخ عبد الكريم العتمي أيضًا:

مــن المخايــا يــا نفحــة النــدل ســريت مــن مربعنــا الأول
عبــرت فاســتعبرت طرفًــا جــرى فســائل الوســمي منــه الــولي
أذكرتنــي الشــعب وجيرانــه وطيــب عــيش بهــم مــر لــي
أضرمت نــار الشــوق هــل تلمــي شتان مــا بــين الشــجي والخلــي
يــا غائبًــا عــن نــاظري لا ســوى غيركم في القلــب لــم يحلــو لــي
شــجونه فــيكم وبرهانــه إذا شــجونًا صــاحب المنــدل
نزلــت فــي مهجتنــا ســابقًا قبــل نــزول السفح مــن جــرول
ألســتم يــوم الســت ولــي عــرفكم تــم بــنص جلــي
وافــى إلينــا وهــو عــين الوفــا كتــابكم والفضــل للمتفضــل
خبّرنــا إنــا علــى بــالكم فالشــكر لله الكــريم العلــي

فلاحظــوا مــن أنــتم أهلــه بلحظـه واستنهضـوا مـن يلـي
قــولكم الطــائر مــن ريشــه حــرَّك أعطـاف أولـي المحفـل
إشـــارة أرســـلتموها لنـــا شـــاهدة بالفضـــل للمرســـل
عســى بكــم يبلــغ مــا رامــه راجٍ ويحظـــى بمقـــام علـــي
بقيــت يــا غوثًــا لنــا منهلاً وشــربنا مــن ذلــك المنهــل
صــلاة مــن أنــزل فرقانــه علـــى نبـــي فـــاق بـــالمنزل
والآل والأصــحاب مــع تــابع ومــن تلاهــا ســالكًا مــن يلــي

وله أيضًا يستفسر عن عزم الأستاذ الأكبر على السفر:

أشمس الغـرب حقًّـا مـا سـمعنا بأنك قـد سـئمت مـن الإقامـة
وإنـك قـد عزمـت علـى طلـوع إلـى أفـق سـموت بـه علامـة
فقـد زلزلـت منـا كـل عضـو بحــق اللّه لا تقــم القيامـــة

ولما نزل مولانا أبو البركات السيد أحمد قدّس اللّه سره بمدينة صبيا باليمن، كتب له العلَّامة الإمام محسن بن عبد الكريم، حيث يقول في كتاب له:

شــرفت صــبيا بكــم فغــدت مـــوردًا للعلـــم والنـــزل
ليــت شــعري مــا الــذي فعلــت فعلـــت قـــدرًا علـــى زحـــل

وللشيخ الفهَامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، قاضي بين الفقيه باليمن المحروس، هذه القصيدة في جنابه الرفيع، قدّس الله سره:

علمت شوقنا إليها فزارت ... وأشارت أن ثم ود صحيح
راعها إذ رأت جفانًا فاغضت ... وكذا يفعل الحبيب الصفوح
نزلت خير منزل في ربانا ... ولها عن كنايته تصريح
عبرت في السرى على حي ليلى ... ولها في الهوى بهم تبريح
فاستعارت أنفاسهم وهي تسري ... فعليها منهم أريح مريح
عطرت كل منزل نزلته ... وهي تسعى وكل ند يفوح
علمتنا بلطفها كيف نأتي ... دارها وهي عن ربانا تريح
وأرتنا قرب المنازل لما ... رقت الحجب فالديار تلوح
فتراءت ديار أهل المصلى ... للمحبين والدموع سفوح
أسرعوا نحوها الخطى وأناخوا ... فاستراحوا بوصلها وأريحو
شاهدوا العز والرضا وتعافى ... قلب صب بهم محب جريح
عاينوا حين عاينوا صفوة الله ... فيوضًا فيها لهم ترويح
حضرة القانت الإمام المفدى ... من على كل قانت له الترجيح
حضرة تحضر الملائك فيها ... ولهم في مجالها تسبيح
خلق الذكر والعبادة لله ... وروح للمصطفين وروح
فهناك الأرواح أفضل جند الله ... تقتدي بهم وتروح
يا ابن بنت النبي دعوة راجٍ ... هو في ودكم له تصريح
فاشملوه بما يكون به في ... جنة الخلد داره البحبوح

وقال في جنابه حضرة السيد العامل الولي الكامل صفي الدين أحمد بن عبد الرحمن صائم الدهر:

أبعدكمو يصفو لصبكم الشرب ... لعمري لا يصفو وقد رحل السرب
لحي الله قلبًا لم يذب لفراقكم ... لقد قدّ من صم الصفا ذلك القلب
وعينًا إذا لم تجري أدمعها دمًا ... وإلا فلا قد كان من ذمه الرب
تكنفني ضدان بعد فراقكم ... ففي مهجتي نار وفي مقلتي سحب
تمثل عيني أرضكم فكأنها ... تشير بهذا أن مدمعها الغرب
وصلتم وأوجزتم فللقلب والنهى ... من البعد والإيجاز من وصلكم سلب
فبين الحشا والحزن سلم لبعدكم ... وبين الكرى والعين من نأيكم حرب
أبيت أراعي في الدجى طيب أرضكم ... وقصدي أنتم يا منى الهائم الصب
زحلتم بأرواح الأحبا فخلفت ... جسومًا لها في كل جارحة نحب
لقد سعدت روح ثوت حيث كنتمو ... وجلت وهل تشقى وأنتم لها صحب
وأظلم ربع عن رباه رحلتم ... ولم لا عنه قد نأى البدر والشهب
ولكن بها من ذكركم طيب الشذا ... وذكركم لم يحكه المندل الرطب
فيا أيها الناؤون رفقًا بمغرم ... ترحل عنه الصفو إذ أزمع الركب
فأربعة والدار أقوت فما درى ... أمن أربع أو أضلع رحل الحب
فعوجوا على مضنى الفؤاد عليله ... ففي قربكم منه ولو لمحة طب
ولي فيكمو بدر تسامى وإنما ... منازله في جسمي الطرف والقلب
هو الشمس قد وافا من الغرب نحونا ... فمن عجب شمس مطالعها الغرب
أتانا وليل الجهل أسود حالك ... فجلى بما يعنو له الحجر الصلب
هو السيد البدر الذي عمّ نوره ... جميع الملا هل جاحد أنه القطب

أفـاض علومًـا بعضـها يمـلأ الـدنا وفي صدره ما لا تحيط بـه الكتـب
لسـنة خيـر الرسـل أضـحى مؤيـدًا فذا الفخر لا ما سيملي بـه القعـب
لـه لسـان كالسـيف إن فـاه واعظًـا ومـا غمـده إلا الحشاشـة والقلـب
لقد أجدبت أرض القلوب من الهوى فلما أتانا كـان مـن لفظـه الخصـب
هنيئًـا لنـا فزنـا برؤيـة أحمـد وإنّـا لـه إن شـاء خالقنـا حـزب
وصلى إلـه كـل لمحـة نـاظر علـى المصطفى والآل ما سحت السـحب

وله أيضًا هذه القصيدة في مدح السيد قدَّس اللّٰه سرّه بعد أن استقر في صبيا واستوطنها، فأرسل بها إليه، أعاد اللّٰه علينا من أسرار علومه وبركاته:

لا غـرو إن زادت بـه أشـجانه وتخـددت مـن دمعـه أوجانـه
وغـدا يحـاكي الطيـف سـقمًا إنمـا مـن فـارق الأحبـاب هـذا شـأنه
صـب متـى مـا رام كتمـان الهـوى جـرت الـدموع فلـم يفـد كتمانـه
وإذ جـرى ذكـر العـذيب تزايـدت أشـواقه وتكـاثرت أحزانـه
مـا ذاك وجـدًا بالعـذيب ولوعـة إن المنـى كـل المنـى سـكانه
وإذا سـرى مـن نحـو صـبيا بـارق باعـت لطيـب منامـه أجفانـه
مـا ذاك برقًـا مـن هنالـك إنمـا نـور تـلألأ واهنًـا لمعانـه
لـم لا وفيهـا حـلّ قطـب زمانـه فبمثلـه لـم يـأت قـط زمانـه
هو أحمد بن إدريس والغـوث الـذي هـو سـيف ديـن المصـطفى وسـنانه
السـيد البـر الـذي مـا حـدّثت بسـوى الـذي يرضـى الإلـه لسانه
بحـر خضـم فـي المعـارف لفظـه حلـي العقـول لآلـئ وجمانـه
نجم الهدى فكم اهتـدى بسـناه مـن ليـل الضـلالة بالهـدى جيرانـه

وحوى علومًا من لدن رب السما   وبها تسامى عن سواه مكانه
هذا هو العلم الذي ما ناله   من لم يوافق سره إعلانه
حاوي الطريقة والحقيقة فهو في   هذا الزمان بما حوى إنسانه
بل حاز شأوًا خلفه رتب الأولى   فهو الإمام وإن تأخر آنه
سلطان جيش الأولياء الأتقياء   طرًا ويشهد لي بذا عرفانه
في كنفه سر عظيم ليس يدريه   سوى الباري تعالى شأنه
فلذاك أن يسأل تأملها فيأتي   بالذي يشفي الفؤاد بيانه
إن كان هذا ما حواه كفه   كيف الذي استولى عليه جنانه
ذو لهجة ما مجّها قلب سوى   قلب امرئ كثرت به أدرانه
فإذا وعى ما قاله قلب فقد   لقى الرشاد وزال عنه رانه
طوبى لمتبع طريقة أحمد   فلذاك عبد صادق إيمانه
يا قاصدًا ذاك الحبيب أتيت من   ظفرت بما يولي النجا ضيفانه
عفّر بذاك الترب خدك والثمنْ   كفًّا تباري الهاطلات بنانه
واذكر هنالك مغرمًا عبثت به   أشواقه وتزايدت أحزانه
صب بذاك الحي أما روحه   فهناك حل وفي الربى جثمانه
كلف بحب أولئك القوم الذين   جليسهم دار البقاء أوطانه
يا أيها القوم الكرام ومن بهم   يمحى لمن والهموا عصيانه
هل يذكر الصب الذي يهواكمو   غلق الفؤاد كليمه ولهانه
أم قد نسيتم من إليكم شوقه   متكاثر وبكم غدا وجدانه
والقصد منكم شربة من كأسكم   فلديكم حاناته ودنانه
شرفتموا عنا برؤية أحمد   وسموتمو إذ أنتم أخدانه

ثم اطلبوا منه الدعاء بما يقر   بنا إلى من عمنا إحسانه
كونوا اذكرنا في مواقفه التي   من حلها فقد انتفت أحزانه
وبكشف ما غم الأنام فأحمد   غوث لم في عصره وأمانه
وإليكم در النظام وإنما   بمديح مولانا غلت أثمانه
وبمدح أحمد لا يفاخرنا أمرئ   إلا سموت لأنني حسَّانه
أسنى السلام عليه يتبعه من   المولى الأجل مدى المدى رضوانه
وعلى جميع من احتواه مقامه   ووعت لطيب منامه أجفانه
ثم الصلاة من السلام على الذي   قد أشرقت بوجوده أكوانه
طه حبيب اللّه خيرته ومن   يعلو رتبته أتى فرقانه
والآل والصحب الكرام مسلمًا   ما مال من روض الحمى أغصانه

وللقاضي الإمام العلَّامة، قدوة أهل النجود وتهامة، الشيخ الحسن أحمد بن عبد اللّه المعروف بعاكش الثغري، في مدح الأستاذ الأكبر سيدنا السيد أحمد، نفعنا اللّه بسره وعلومه آمين:

جهد المتيم بعد البين أن يقفا   مستنطقًا مربعًا بالرقمتين عفا
أكرم بها بقعة حلّ الحبيب بها   فنحوها القلب لا ينفك منعطفا
تلك المنازل لا شرقي كاظمة   ولا العقيق فعنها لست منحرفا
كيف السلو ولي عين مسهدة   ومدمع عند حر البعد قد وكفا
فلا تلمني إذا ذاب الفؤاد أسى   لا يشتكي الوجد إلا من له عرفا
أريد قربهم والحظ يحرمني   يا ليت حظي بوصل نحوهم سعفا
زاد الغرام معي تذكار وصلهم   فالشوق والسقم للعاني قد اكتنفا

إليك نشكو الهوى يا عز فاستمعي ... قول الذليل الذي في حبكم شغفا

هل نظرة منك تشفي الصب من ألم ... ما زال دعواه بعد البين وا أسفا

واستوجف الحب قلبًا قد أراب به ... ركب إلى سفحك الميمون قد وجفا

إن كنت أذنبت في ذكري لغيركم ... فغير ذكري لكم لا ابتغي خلفا

إني وحقكم لا أرتضي بدلاً ... سواكم وبكم قلبي لقد كلفا

فإن سرى البرق ليلاً في دجى سحر ... ألفى الفؤاد على ذكرك منعكفا

سألت ريح الصبا إذ مرّ طالعه ... عنكم فأبدا بنشر ما عليه خفا

فظلت أنشق من رياه ما انتعشت ... مني رميم فؤاد بالنوى ضعفا

لولا انتشاقي له ما نلت مكرمة ... بلثم كف امرئ بالفيض قد وطفا

قطب الزمان الذي طابت أرومه ... فقلبه من كدورات الذنوب صفا

تزاحمت فيه أوصاف الكمال فما ... يأتي الذي قال في علياه أو وصفا

فعنه حدث بما أعطى فلا حرج ... فإنه البحر ما قدر الذي غرفا

يبدي لنا من معاني قول خالقنا ... ما فيه للمهتدي الأوّاه أي شفا

وذاك فيض من الخلّاق أعطيه ... فلا يفتش فيما قاله الصحفا

أحيا لنا سنة المختار من مضر ... فحسبنا ما يقول المصطفى وكفا

ما زال ينشرها في كل آونة ... لم تلق فيه كلامًا للذي سلفا

مشى على سنة الحق المبين فلا ... يرى التعصب إلا الزيغ والتلفا

كم من جنى لفظه الداني وجاد به ... فضلاً عليّ بأيدي فكرتي قطفا

فلفظه الدر لا يخفى على أحد ... وأذهن الناس قد صارت له صدفا

أتى إلى أرضنا يا حبذا فزهت ... وصار مسكنه فيها لنا شرفا

فليهنأ كونه فيها فقد طربت ... واستبشرت وغدت ساحاتها غرفا

يـا مفـرد العصـر إن الـود مسـكنه قلبي لكم لست عنه الـدهر منصـرفا
وقـد بعثـت نظامًـا نحـوكم طمعًـا في دعوة تـذهب الأحـزان والقشـفا
لا زلت فـي نعمـة غـرا تكـون لكـم عن كل بؤس مـدى حـالاتكم كنفـا
ثـم الصـلاة علـى المختـار سـيدنا والآل والصحب ما برق الحمى ولفـا

ولسيدي العلَّامة الفقيه يحيى عبد الله التهامي مكاتبًا بهـا القطـب الربـاني المذكور، نفعنا الله بأسراره وأعاد علينا من بركاته:

سـلام ومـا التسـليم عنـدي بنـافع إذا لـم أقبـل بـين أيـديكم الغـرا
سـلام علـيكم سـادتي لـو علمتمـو برحلتكم كم ذقـت مـن أجلهـا مـرا
سـلام علـيكم قـد تـركتم متيمًـا فريدًا كما قد كان من قبل بل أحـرى
سـلام علـيكم مـا أمـرّ فـراقكم وأصعب ذكراكم على المهجة الحـرا
سـلام علـيكم أهـل بيـت محمـد هجـرتم حزينًـا للـدموع لـه مجـرى
ومـا شـأنكم إلا وداد محـبكم ووصـلته بالمكرمـات لـه طـرا
تـركتم وحيـدًا فـي المخـاء متيمًـا فيا أهل موزع طاب عنـدكم المسـرا
فطوبـوا لزواريـه حيـث ترحلـوا إليـه فطـابوا عنـد حـوزهم الفخـرا
وهـا أنـا موثـوق مشـوق مقيـد بـأغلال عسـر راجيًـا بعـده اليسـرا
وقد كنت مأنوسًا كصبح عروسـهم يلاقيـه مـن يهـوى ويأتيـه مـن يمـرا

مدائح المحبين

قال فيه الأستاذ العلَّامة الشيخ محمد الأمين أبو قرين، مُدرس العلم الشـريف بالخرطوم البحرية:

ألا رائـدًا سـبل المعـارف والـولا تمسك بـنهج العـارفين إلـى الـرمس
ولا سـيما الأسـتاذ أحمـد غوثتـا ففي حبه فابـذل نفيسًـا مـع الـنفس
هو الشهم نجل إدريس فاضت فيوضه وصيت له يعلو على الجـن والإنـس
إمـام محـى كـل الجهالـة نـوره و في سوحه سفن الكرام لقـد ترسـى
تكمَّـل قـدمًا بالفضـائل والتقـى ودانت له الأكـوان طـرًّا بـلا حـدس
تفاسـيره الغـرا تـدل حقيقـة على أنه البحر المحـيط وذو القـدس
مواعظه تجلـي القلـوب مـن الصـدا وسر له يخفى البدور كمـا الشـمس
لـه حكـم جمـا فعـز نظيرهـا وكم معضل حلاه ذو المشهد الأنـس
منـاظره فـي العلـم شـاهد فضـله فذا مرشد أخلى النفوس من الـرجس
فحينـا بـدت أنـوار أحمـد للـورى تواضـع كـل الكـاملين لـذا الكـيس
فكـم نـال منـه للحقـايق عـارف وأرواه خمـر الأنـدرين بـلا مـيس
بدايتـه كانـت نهايـة كامـل بذا يشـهد الغر المـذيحون للـنحس
مريـدوه حقًّـا هـم جهابـذة المـلا ونالوا فتوحًا منه في المعنى والحـس
أغثنا أيـا ابـن إدريـس غوثًـا محققًـا ولا تهملن أنت الكريم زكي الـنفس
أيـا سـيدًا فقـت الكـرام جمـيعهم أمـين لكـم غيثـوه يصـبح أو يمسـي

وقال الأستاذ الأديب والشاعر الفز السيد حامد أبو المكارم، المُدرس بكلية الأقباط الخيرية بالخرطوم:

مدح وذكرى

(ما مات من خلدت آثاره الكتب)

هذا ابن إدريس لا فخر ولا عجب ... الشرق يعرفه والعجم والعرب
إني لأمدحه والكل يمدحه ... لئن مدحت فمدحي بعض ما يجب
هذا شريف له الأشراف ساجدة ... هذا نسيب له الأنساب تنتسب
هذا همام يفوق النجم مرتبة ... هذا ولي ولكنه دونه الرتب
هذا التقي وكل الناس تعرفه ... له الفضيلة أم والعفاف أب
هذا السحاب ندى هذا الغمام يدًا ... هذا السخي ولكن كفه سحب
هذي مكانته تعلو السماك علا ... أما المقام فحقًّا دونه الشهب
كم طهّر النفس من رجس ومن دنس ... كم نوّر الفكر والأفكار تضطرب
هذي طريقته كالشمس ساطعة ... لا السحب تحجبها كلا ولا الحجب
هذا طريق بأهل الفضل متصل ... هذا الطريق به المقصود والطلب
يا أهل صبية يكفي الترب مفخرة ... فإنما اللحد فيه الأصل والحسب
يكفيك يا لحد ما في اللحد من شرف ... يكفيك يا لحد فيك الفخر والنسب
أستاذ عثمان ما قولي وما عملي ... وأنت أنت المنى والسؤل والأرب
حتى متى عاذلي في الحب يعذلني ... كيف السلو وقلبي كاد يلتهب
يا عاذلي في الهوى والحب معذرة ... دعني وشأني فحبي عوده رطب
دعني أمرّغ خدي فوق تربته ... دعني ووجدي عساها تنجلي الكرب
إني مدحت تقيًا طاهرًا ورعًا ... ولست أعرف ما الإسهاب ما الطنب

وكيـف لا أمـدح الأقطـاب قاطبـة   والبيت بيت لأهل البيـت منتسـب
يـا طيفـه زر كئيبًـا بـات مكتبئًـا   والقلب ملتهـب والـدمع منسـكب
يبكـي أسـى ودمـوع العـين جاريـة   والعقـل مضـطرب والفكـر مقتـرب
مـا مـات مـن خلـف الآثـار خالـدة   ما مات مـن خلـدت آثـاره الكتـب
ما مات من حلّقت في الكون شهرته   مـا مـات مـن رددت آياتـه الحقـب
هــذي مناقبــه الغــراء عــامرة   هـذي مفـاخره هيهـات تحتجـب
أيـن العـلا والمعـالي أيـن قادتهـا   أيـن المعـارف والعليـاء والأدب
أين التقـى والهـدى بـل أيـن منبعـه   أين الألـى سـلفوا أيـن الألـى ذهبـوا
أين الألى نشـروا العرفـان مـن زمـن   أيـن الأماثـل والأمجـاد والنجـب
أيـن الرسـول وأيـن الرسـل أجمعهـا   أيـن المفـر مـن الأقـدار والهـرب
يـا راحـلاً وبيـوت المجـد تندبـه   والشرع يبكي أسى والـدين ينتحـب
نم فـي الجنـان قريـر العـين مغتبطًـا   فـز بـالنعيم فـلا شـك ولا ريـب
الطهـر طهـرك والأقـوام شـاهدة   والزهـد زهـدك لا مـين ولا كـذب
كيـف التجلـد والأيـام مؤلمـة   وكيـف والـدهر فـي أنيابـه العطـب
يـا رب بالمصـطفى عفـوًا ومغفـرة   عسى النوائـب والأحـزان تنسـحب
بأهلــه وبأهــل البيــت عترتــه   فرّج همـومي فجسـمي هـده النـوب
صلى الإله على المبعوث من مضر   ما لاح بدر ولاحت في السما شهب
وأغفـر لقائلهـا وألطـف بقارئهـا   ونـج منشـدها مـا أمطـرت سـحب

وقال فيه حول ذكراه في رجب:

(هل للسعادة من ثمن)

قطب الولاية باليمن والقطر باليمن اطمأن
والسعد هلَّ هلاله والنحس ولّى والحزن
هذا التقي ابن التقي هذا أخو الخلق الحسن
هذا ابن بنت المصطفى هذا المنسب للحسن
حاشا يهان مريده حاشا يحالفه الشجن
حاشا يضام نزيله كم فرّجت يده محن
مرحى بقطب زمانه مرحى بأستاذ لسن
مرحى بغوث عارف مرحى بجهبذنا الفطن
من للشريعة غيره من للكتاب وللسنن
من غيره يجلي الصدا في السر طورًا والعلن
من للسماحة والندى من للعطايا والمنن
من للطهارة والتقى من بالصلاح طوى الفتن
من للهداية والهدى من للصواب هدى الوطن
كم قام في جنح الدجى وسواه أقعده الوسن
كم بات يعبد ربه والغير بالدنيا افتتن
كم بالعطا بل الظما هل بالحشا والروح ضن
من للعدالة غيره هل جار يومًا أو غبن
يا بحر عرفان الحمى يا قطب أقطاب الزمن
هبني أسوة أسوة كيف النجاة من الدرن

إنــــي محــــب مغــــرم   مــا للهـوى العـذري ثمـن
يــا عابـد الـدنيا اتئـد   جاريــت عبــاد الــوثن
حاشــا تلــين قناتـــه   لسـوى الحقـائق لـم يلـن
هــو كالحديـد صـلابة   هـو لـيس بالسلس المرن
طــاف الفيــافي مرشـدًا   وبصـبية أرخـى الرسـن
وبمكــة صــرع العـدى   والشـام بالقطـب ارجحـن
طــوبى لتربــة صـبية   فاللحـد بـالطهر اقتـرن
كــم هــام صــب باللقــا   كــم مغـرم للوصـل حـن
كــم مهجـة ذابـت أسـى   كيــف التسـلي يـا فطـن
حاشــاي أن أسـلو الهـوى   مــن ذا الــذي يسـلوه مـن
مــا العشــق إلا عشـقه   من ذاق كـأس العشـق جـن
أنــا لا أخــون عهــوده   مــا حلـت الـروح البـدن
هيهــات لســت بمنـثنٍ   عــن عهــده طـول الـزمن
عهــد السـعادة والغنـى   هــل للسـعادة مـن ثمـن
يــا ربنـا جـد بالرضـا   وأمـنن بعفـوك والمـنن
وأغفــر ذنــوبي كلهــا   واسـتر عيـوبي والمحـن
مــولاي صـل علـى النبـي   مــا هــام مشـتاق وأن
إنــــي قتيــــل هــائم   قلبـي لمحبـوبي سـكن
هــذا الرسـول المصـطفى   هـذا ابـن إدريـس اللسـن
مــن غيـر أحمـد يرتجـى   مــن غيـر أحمـد يـؤتمن
إن لــم ينلنــي مــأربي   يـا ليـت شـعري مـن إذن

هــو غــايتي هــو بغيتــي   هــو روح روحــي والبــدن
فعليــــه ألـــف تحيــــة   مــا طـــار طيـــر أو ركـــن

وللحقير الراجي الفيض السرمدي، كامل محمد حسن الأحمدي، هذه القصيدة في مدح أستاذه الأعظم، قدس اللّٰه سرّه:

إن الوصال إلى المحب صلاح   والبعـد عـنكم سـادتي فضّـاح
والكـون هـذا كلـه بوجـودكم   تزهـو بـه بـين الـورى الأفـراح
ما السعد والإفضال إلا منكمـو   مــا للمنــى غيــركم أفــراح
دارت على الأكوان منكم نشـوة   فتواجدوا شـوقًا إليهـا وصـاحوا
شربوا بها كأس المحبة والهـوى   فتمايلــت مــن ريحهــا الأرواح
أرواحهـم فـي كنههـا مملوكـة   كتمـانهم عـن وصـفها إفصـاح
في هناء عقلـوا ركائـب شـوقهم   وغـدوا إليهـا هـائمين وراحـوا
لبسوا وشاح الحب فيهـا جهـرة   أضـحت بهـا أشـجانهم أربـاح
فاحــت بعنبرهــا أريــج عبيرهــا   واهتـــزت الأرواح والأشـــباح
رقصوا بطنبـور الجلالـة خشـعًا   والليل أضحى بالوصـال صـباح
ذا أحمد بن إدريس رئيس دنهـا   وصــلاحه للكائنــات صــلاح
هو حضرة الأسرار بـاب منارهـا   هــو للفضــائل والهـدى مفتـاح
ولــه إشــارات تجلــى نورهــا   هــو للهدايــة والهــدى مصـباح
من فيضه في كـل وقـت نفحـة   قد بالغـت فـي وصـفها الشـراح
يا غاية المأمول يا شمس الهدى   دارك محبًـا فـي الهـوى صـيّاح
أنـتم مـلاذ والخطـوب عصـيبة   أنــتم غيــاث والهــوى جــرّاح

بالمصطفى المختار واصل مغرمًا صبًّا لـه فـي حـبكم أمـداح
ذا كامل يرجـو بمـدحكم الرضـا كـم بالسـعادة فـازت المـداح
صلى الإلـه علـى النبـي محمـد مـا غـردت بمديحـه الصُـلَّاح
ولأحمد بن إدريس تغشى دائمًـا مـا اهتـزت الأرواح والأشـباح

(وله أيضًا):

أيهـا اللائـم دعنـي لا مـلام عج علـى صـبيا واقرئهـا السـلام
وصـف الشـوق لقطـب عصـره كـم سـهرت الليـل والغيـر نيـام
فمتـى يقضـي بوصـلي واللقـا ويمـيط الحجـب عنـي واللثـام
لأرى بـدر الـدجى فـي جبهـة وأرى شمس الضحى خلف الخيام
وخـدودًا يضـحك الـورد بهـا وغصون البـان فـي روض البشـام
أيهـا الراكـب مهـلاً إننـي في اجتلاء الوصـل موفـور الغـرام
أسـلمتني فـي هـواهم نظرتـي لمعـانِ الحسـن فـي نـور الظـلام
أحمد بـن إدريـس مـرآة الأولـى عبـد الـرحمن حـالاً ومقـام
بهـرت أوصـافه شـمس الضحى ولـه فـي السـر أسـرار جسـام
لـيس فـي الأكـوان مـن ينكـره كـان للكـل إمامًـا واعتصـام
فـي مقـام الصـدق محفوفًـا بـه يرتجـوا شـربًا طهـورًا ومـدام
غـوثهم والقطـب مـن أعوانـه وكـذا الأبـدال والفـرد الهمـام
قطـب أقطـاب مقامـات العـلا بـرزخ القـرب وللكـل إمـام
فرضــاء الله ربـي دائمًـا يغشـه والآل مـع صـحب كـرام

(وله أيضًا)

أضـيـاء الوجــه أم بــدر السـما   أيهــا المحبــوب واصــل مغرمــا
أيهــا اللائــم دعنــي والهــوى   إنما الحب جعـل يعلنـي حسـبما
بفتـــاة جـــذبت عقـــل الفتـــى   ورمــت بـــالجفن ليثًـــا ضـــيغما
ذيلهـا بالتيـه قـد صـادت بـه   قلـــب معشـــوق غـــدا متيمـــا
قـدها كالغصـن أضـحى مائسًـا   ريقهـــا فيـــه شـــفاء للظمـــا
وجههـــا يحكـــي ضـــياءًا أبهـــرًا   شــعرها يــا صــاح لــيلاً أظلمــا
حبهـــا بالوصـــل جنـــات الرضـــا   بعـــدها بـــالهجر همًّـــا أدهمـــا
بهواهـــا كنـــت عنهـــا لاهيًـــا   لســت أدري حبهــا بــدرًا ســما
عرفتنـــي حبهـــا إذ خـــامرت   بنســيم الصــبح عرفًــا تيمــا
أوردت قلبـــي حماهـــا جهـــرة   مدمعي كالسحب يجـري إذ همـا
جئـت هــذا الحــي أرجــو نظــرة   من حبيـب حـلَّ فـي ذاك الحمـى
علــه يرضــى بتشــنيف إلــى   مســمع يشــتاق لفظًــا ناعمــا
بحـــديث طالمـــا أنشـــده   عن طبيبـة الـروح مجلـى للعمـى
خطبــت بــاللفظ ســادتي الأولــى   بــذلوا فــي اللّه عمـــرًا قيمـــا
عشـــقوا ليلـــى وســـلمى والتـــي   نالـــت الحســـن مقامًـــا أعظمـــا
آنســـت صـــبًا ولوعًـــا خـــامرت   عقـــل صـــب ســـره منكمـــا
اســـمها بـــالجيم إجـــلالاً لهـــا   ألبســـت بالـــذكر تاجًـــا علمـــا
بتجلـــي الـــذات تهـــدي آربًـــا   لعشـــوق لـــيس يـــدري كلمـــا
يعمـــر الأخـــرى بـــذكر دائـــم   حظــه فــي هــذي مــرًا علقمــا
يقطـــع الليـــل بـــأنس شـــائق   ليت شعري كيف لا يهوى اللمما

أحمد بن إدريس مرآة له　　لبيان الرشد عقدًا نظما
خصّه المولى بتشريف على　　سائر الأحباب فضلاً قدّما
بحره في السر بحر زاخر　　لجميع الخلق غيثًا طمطما
جده المختار مصباح الدجى　　شيخه في الهدى بازًا علما
عابد الوهاب نبراس الأولى　　ظهروا في الله طرقًا قيما
شيخه الدباغ إكسير الهدى　　طيب الأصل وللدين حمى
قادة الأشراف أسياد النهى　　ليس للدين سواهم سلما
في حماهم كل خير يجتنى　　بجزيل الفضل حسنًا تمما
أجزهم مولاي خيرًا فائقًا　　أرضهم عنها رضاءًا دائما
أدخل الكل لدى روضاتهم　　أوهب الأصحاب فضلاً كرما
كامل بالفتح فاملأ قلبه　　بيقين صادق يروي الظما
وصلاة الله تغشى أحمدًا　　رحمة الرحمن أصل الرحما
وآله والصحب ما طير على　　دوحة الأفنان جهرًا رنَّما
أو محب جاء يتلو شغفًا　　بنواحي الحي بدر قد سما

وله أيضًا هذه الموشحة ختامًا للباب:

أيها الركب الميمم　　ربع سادات كرام
جدّد النوح لعلي　　وعسى ألقى المرام
واذكر الصب المعنى　　بخضوع وسلام
فحياة الصب نوح　　وبكاء وهيام
هذه آثار حبي　　حركت داء كمين

بــين جفنــي ومنــامي حرب هجر مـن سـنين
كيف أسـلو نـور عينـي والهـــوى داء دفـــين
لا تلم في الحـب مثلـي لا تلمنـــي لا مـــلام
إننـــي صـــب ذليـــل لـــيس لـــي إلا النـــواح
رمـت أن أكـتم حبـي ففشـــا الـــدمع وبـــاح
رامـوا عـذالي سـلوى ليـتهم ذاقـوا الصـياح
فرثـــوا لـــي ولحـــالي كـــل مـــا مـــر الكـلام
صاح لا تنسـى غرامـي واشـــتياقي للـــديار
صاح لا تنسـى هيـامي بــين هاتيــك الغفــار
صــاح إن العمــر ولــى بــين هجــر واصــطبار
إنمـــا البعـــد لهيـــب إنمـــا الهجـــر حـــرام
إن فـــي صـــبيا كرامًـــا ملكـــوا منـــي الزمـــام
لسـت أسـلوهم حيـاتي لســت أنســاهم دوام
هـــم حـــديثي وغرامـــي كلمـــا جـــنَّ الظـــلام
إنمـــا الـــذكرى شـــجون كلمـــا دار المـــدام
شـــاقني غـــوث وغيـــث وإمـــــام للكـــــرام
شـــاقني طـــل وربـــع فيـــه هـــدي للأنـــام
شـــاقني دن وكـــأس ولـــه منـــي الســـلام
يـــا كـــرام الحـــي أنـــتم ملجـأ العاصـي الـذليل
يـــا أهيـــل الفضـــل أنـــتم رحمـة المـولى الجليـل
فتـــراكم روح روحـــي وعطـــاكم لـــي جزيـــل

فرِّجوا يا قوم كربي　　أنتمو القوم الكرام
ليس لي إلا رضاكم　　فهو طب للفؤاد
ليتني يومًا أراكم　　لأرى عين الرشاد
انتمو فوزي وحظي　　ونعيمي والمراد
فاصلحوا قلبي ولبي　　قد تولاني السقام
سادتي جودوا بوصلي　　إنما الوجد مقيم
عللوا بالوصل نفسي　　إنني صب سقيم
قربكم جنات عدن　　بعدكم نار الجحيم
صبكم قد ذاب شوقًا　　صبكم حاشا يضام
سادتي جودوا وعودوا　　وأصلحوا قلبي الكسير
قد براه الشوق لما　　سار بالركب الخبير
فعليكم كل أمري　　فالرجا فيكم كثير
باعترافي وقراري　　فأنا الصب الملام
وصلاة الله ربي　　كلما مرَّ النسيم
لرسول الله طه　　صاحب النهج القويم
وكذا آل وصحب　　نصروا الدين العظيم
هم جنود الله حقًّا　　وهمو رسل السلام
ورضاء الله دومًا　　لإمام الأتقياء
أحمد بن إدريس قطب　　ساد كل الأولياء
كل أعطاه فضلاً　　فهو عين الأصفياء
وكذا آل وصحب　　فهمو كل المرام